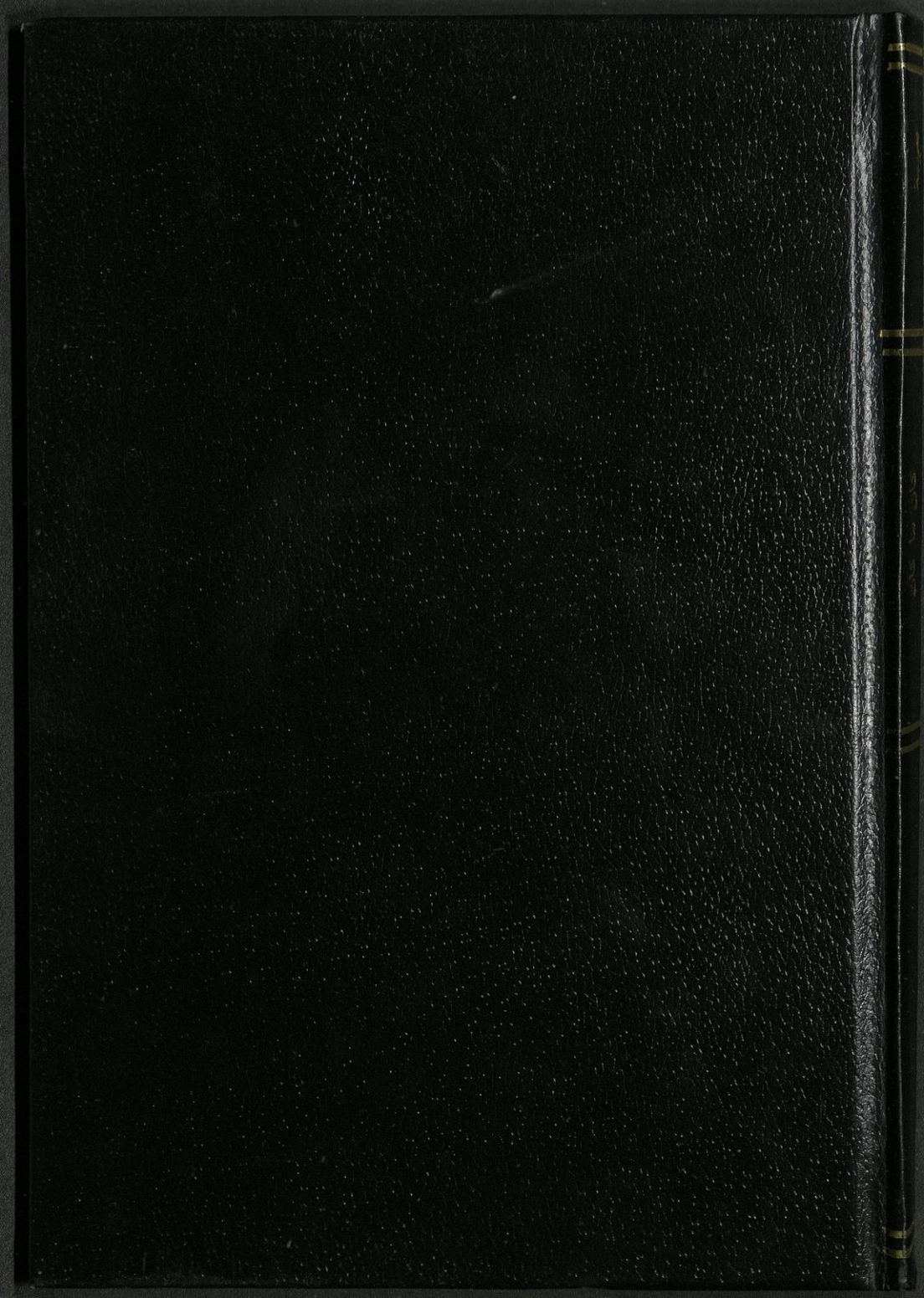
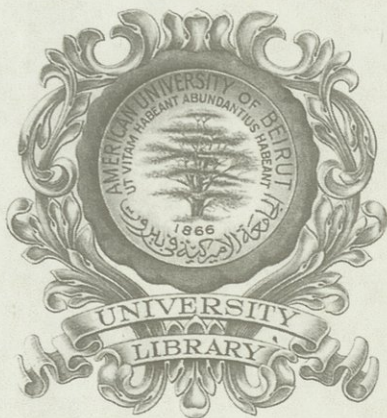
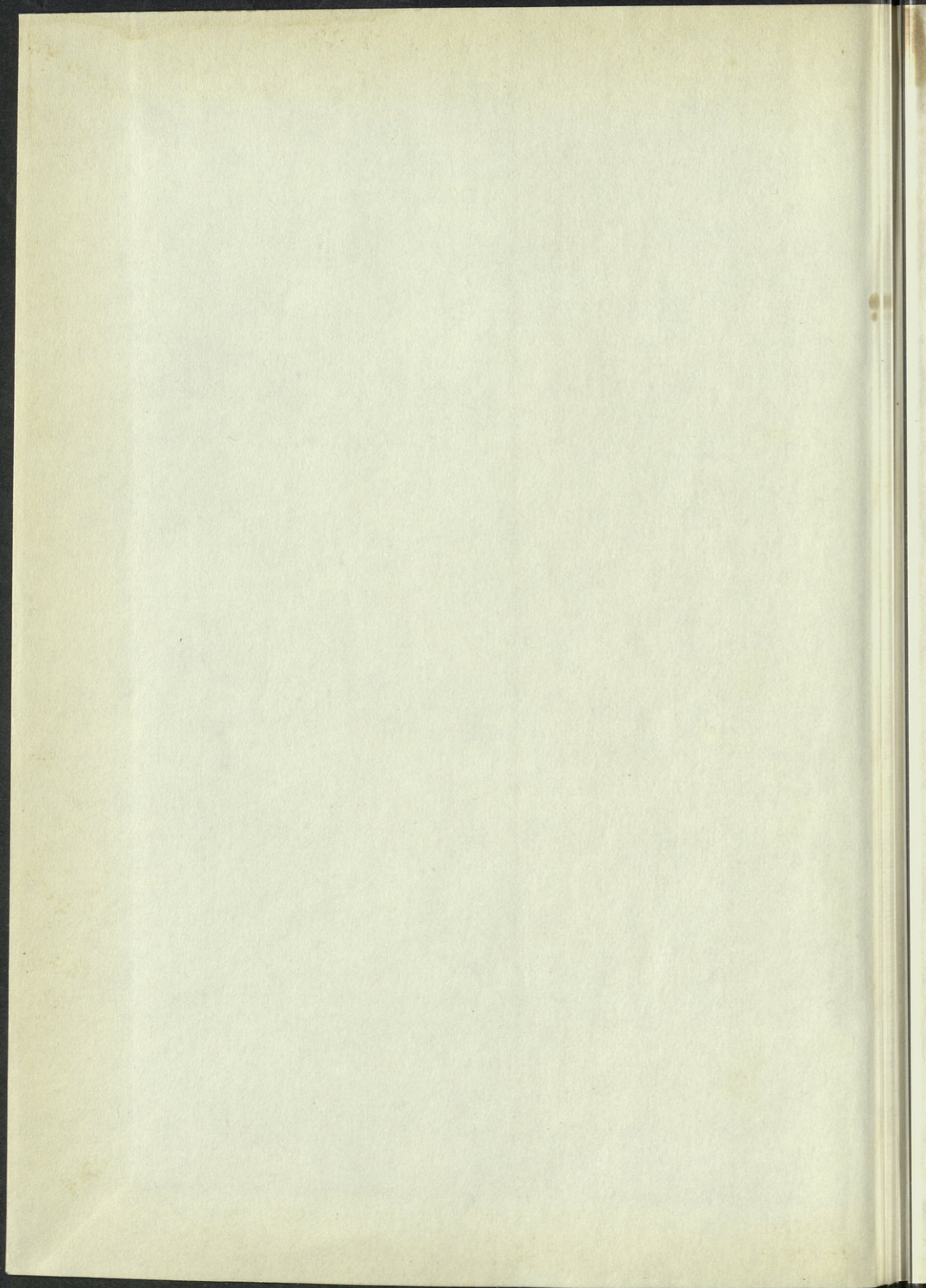


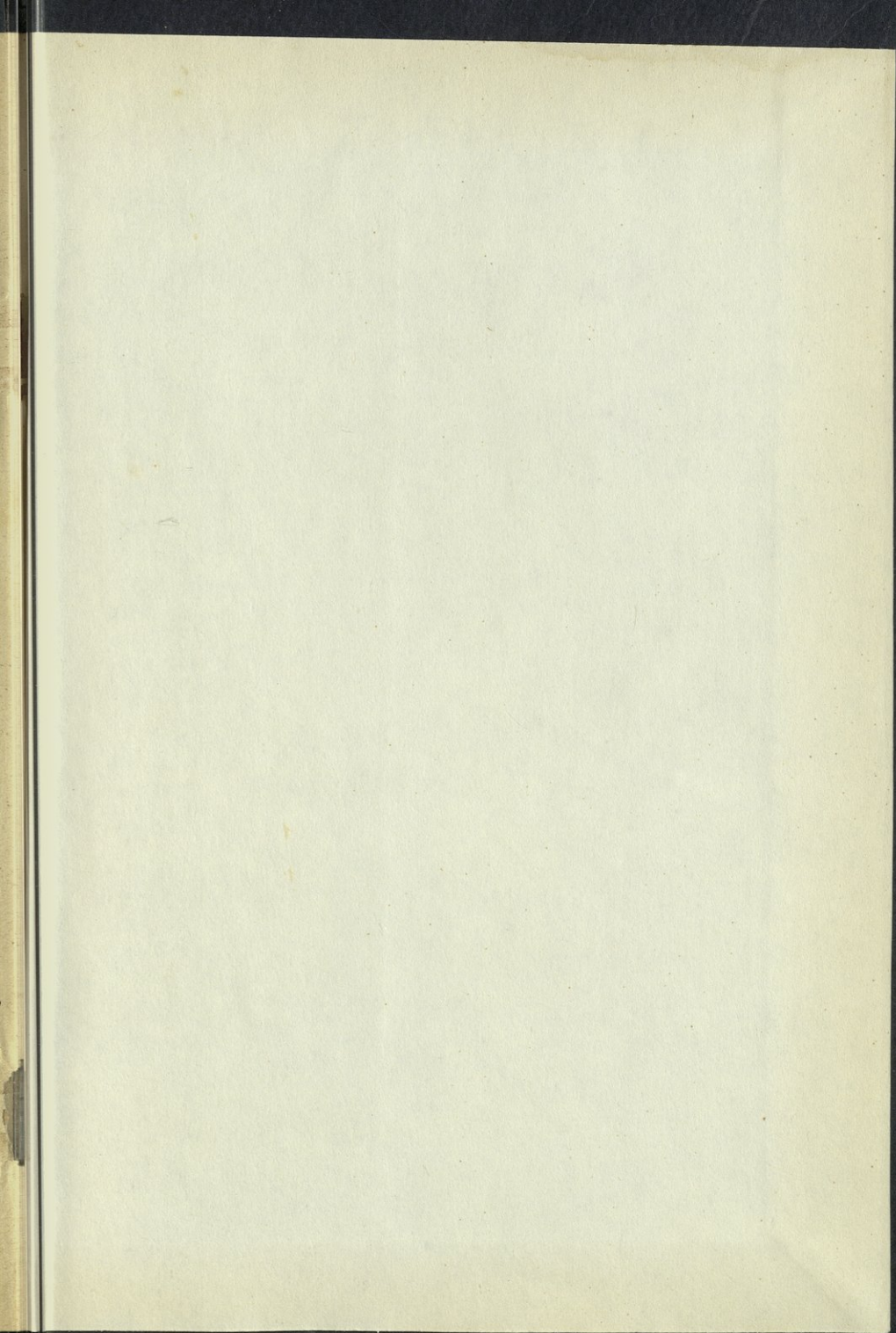


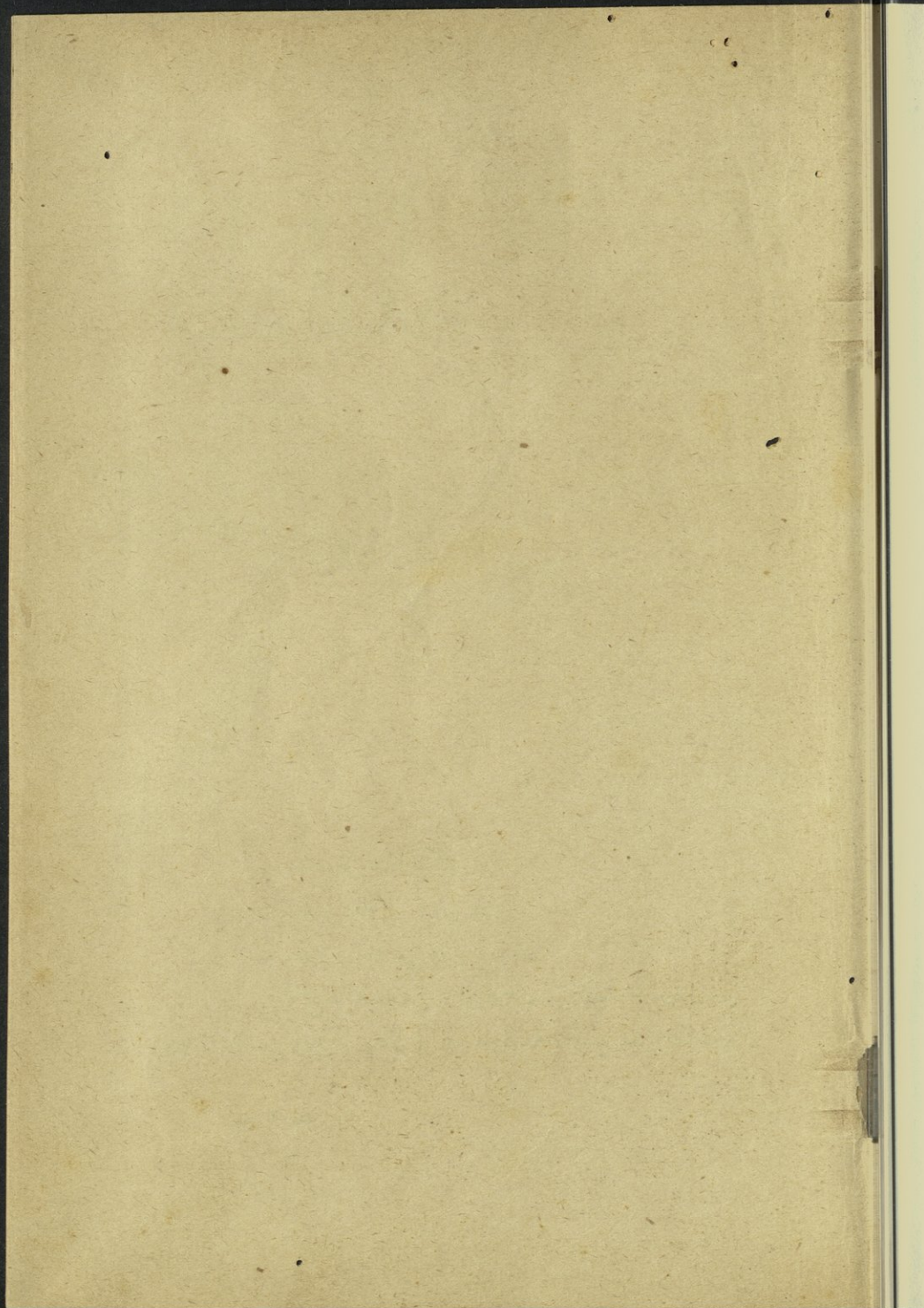
RAR-398

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT









طبع من هذا الكتاب
الفا نسخة على ورق عادي
و ٢٥ نسخة على ورق « بوفان »
وهي مرقومة من ١ الى ٢٥ ، ثمن النسخة ليرة ل.س
و ٢٥ نسخة على ورق « بوفان » غير مرقومة ، وغير معروضة للبيع

الى استاد بطرس البستاني مع دلائل و حقايق

منهجي

كان لكان

بيروت ١٤٩٠ هـ / ١٩٧٠ م

جميع الحقوق محفوظة لـ ليخائيل نعيمة

مطبعة الاتحاد « بيروت » ١٩٣٧

الحق
٥٥
٥٥٥

CA
892.78
N962bA
1937

كان م كان

مجموعة قصص

بقلم

مينا ئيل نصيمه

منشورات «المكتشف»

= ٥ =

كتب اخرى للمؤلف

الرباء والبنون

(رواية تمثيلية)

الغربال

(دروس نقدية)

المراحل

(سياحات في ظواهر الحياة وبواطنها)

جبران خليل جبران

(حياته . موته . ادبه . فنه)

زاد المعاد

(خطب في الناس والحياة)

تطلب من المكاتب او المؤلف في بسكمتا * لبنان

ساعة الكوكو

أثنى الهبات هبة تجهل واحبها .

في حقيقتي رسالة هي عندي انفس ما وهبنيه الناس حتى اليوم .
تسلمتها في اوائل ايار سنة ١٩٢٢ فتلوتها ولم اقع فيها على اقل اثر
استدل منه على مرسلها ومحل اقامته . وجل ما اهديت اليه من مضمونها
وطابع البريد على غلافها انها مرسله من قرية لبنانية صغيرة .

احتفظت بهذه الرسالة منذ تسلمتها حتى اليوم املاً بأن يعود كاتبها
ويذكرني ولو بسطر او سطرين . ويطلعني على اسمه وعنوانه فاشكر
له في الاقل تحفته واستأذنه بعرضها على الناس اذ حرام ان تدفن
بين اوراق قديمة مهملة .

الا انه ما كان ليحقق املي . لذلك آخذ المسؤولية على نفسي ،
وانشر اليوم هذه الرسالة الغريبة ، حتى اذا ما كان كاتبها حاملاً للان
قسطه من هموم هذه الحياة ، واتفق ان وقعت عيناه على هذه السطور
فليقرأ فيها شكر قلب سيظل يذكره بالخير حتى آخر نبضة . وان
تكن روحه قد اجتازت الهوة فلها من روحي الف رحمة ورحمة .
والى القاريء الرسالة ، بعد حذف التحيات والسلامات وكل

الخصوصيات :

«... مات امس في هذه القرية وجل عظيم . وقد دفناه اليوم .
وها انا اكتب اليك وعلى يدي آثار من تراب الرمس .
« دفناه نحن رجال القرية ونسوتها ، من اكبرنا الى اصغرنا ، ما
خلا كاهنينا — كاهن الكنيسة الشرقية وكاهن الكنيسة الغربية .
لان كلاً منهما ادعاه من رعيته وليس منها من تمكن من اثبات دعواه ،
اذ كان الفقيد يتردد في حياته على الكنيستين بالسواء . لكنه لم يجاهر
قط بمذهب ، ولا تناول الاسرار الالهية في كنيسة من الكنيستين .
فحسباً للخلاف دفناه لا كهنة ، ولا مباهر ، ولا شموع . وذلك اول
مأتم شهدته في حياتي من نوعه .

« ان انا قلت لك ان كل حفنة من تراب الرمس الذي ساعدت
اليوم في حفره وردمته بيدي مع الرادمين عادت اليه مرواة بالدموع
دموعي ودموع كل من حضر ، ان قلت لك ذلك فصدقني لانني لست
كاتباً ولا شاعراً .

« ان العظمة التي ترونها انتم معشر الكتاب والشعراء ، ان في
انفسكم او في الناس ، اكثر ما تكون قرقرة عظام في الدست . اما
القدر الملافة غذاء طيباً ، والتي تغلي على مهلها ، فلا تسمعونها ولا
ترون ما فيها . فمن صنف كتاباً رائجاً او نظم ديواناً رائجاً عظيم .
ومن اخترع ملهامة جديدة للبشر عظيم . ومن صور صورة جميلة عظيم .
ومن ربح معركة حربية عظيم . هذه العظمة ترونها وتسمعونها

لأنها قرقاعة ، اما العظمة الساكتة فاذا نكم دونها صماء ، وابصاركم
عنها كليله وعمياء . وماذا عساكم تسمعون اذا كنتم لا تسمعون
صوت العظمة الساكتة ؟ وماذا عساكم تبصرون اذا كنتم لا
تبصرون وجه العظمة المتسترة ؟

« ان من دفناه اليوم لم يصنف كتابا قط ، ولا نظم قصيدة ، ولا
نحت تمثالا ، ولا اكتشف علاجا ، ولا اخترع مهلكة جديدة للبشر .
وكان مع ذلك عظيما امس ، وهو عظيم اليوم ، وسيظل عظيما غدا .
« ولماذا ؟ لانه اضاع نفسه ثم وجدها ، لانه تعارك مع ساعة
الكوكو فانتصر عليها . وحتى اليوم لم اسمع بواحد منكم تناب على
ساعة الكوكو . ومتى اضعت نفسك يا سيدي ثم وجدتها ، متى
انتصرت على ساعة الكوكو ، اكون اول الشاهدين بعظمتك .
« جاءنا هذا الرجل منذ سنتين وهو لا يعرف القرية ولا احدا
فيها ، ولا احد في القرية يعرفه . وليس من يعرفه في القرية حتى
اليوم الا انا . فقد باح لي بسر موته . وهما انا ابوح لك به ،
ولست جاهلا الى حد ان اسألك حفظ السر . لاني اعرفكم معشر
الكتاب والشعراء لا تحفظون سرا ولا ترعون عهدا . فكلكم نمام
فضاح . اذا لم يفضح السر بلسانه فضحه بقلمه ، وان لم يكن له ما
يفضح فضح اسرار نفسه .

« انت لبناني وتعرف اخلاق القرويين في لبنان ، لاسيما في قرية
صغيرة كهذه . اذا طرقهم غريب لا يوصدون ابوابهم في وجهه .

ولا يطعمونه القمح بيمينهم ويسارهم ممدودة الى كيسه . انكمهم
يكثرون السؤال شأن القرويين في كل مكان اذا حل بهم غريب :
من ؟ ومن اين ؟ والى اين ؟ ولماذا ؟ ونحوها من السؤالات .

« ولم تكن الا عشية وضحاها حتى شاع في القرية ان الزائر
الغريب رجل امير كي اسمه «طمس» . وانه ولد في لبنان وقضى فيه
صباه وقسمه من شبابه . ثم عاد الى بلاده وراء البحار حيث اشتغل
عشرين عاما فاتهكت قواه . وذكر لبنان فاحب ان يرجع اليه ليسترد
همته ونشاطه . وقد اختار قريننا لطيب مناخها وجمال موقعها .

« رأيت الرجل في اليوم الثاني بعد قدومه الى القرية . فوجدت
في وداعة عينيه جاذباً ، وفي هيمه طلعه دافعاً . كأن عينيه كانتا
تقولان لي : ادنُ مني يا اخي . اما هيئته فكانت تقول : لا تلمسني !
فدنوت منه ولم ألمسه ، وهكذا بقيت قريباً منه بعيداً عنه ، الى ان
كان يوم لمسته فيه ، بل عانقته حتى كأنني واياه واحد . ذاك يوم
فتح لي صدره وقال : ها أنذا !

« ألت ترى ان الناس يسرون في الحياة اسراراً ، فالإنسان
يقرب من الانسان بقدر ما يقترب المتشابهان في الظاهر : هذا سر
وذاك سر . وهنا تنتهي القرابة ويتعد الانسان عن الانسان بقدر ما
يحيد في كتمان سره . اما ساعة يكشف الانسان للانسان سره —
ساعتئذ تنصرم فواصل الزمان ، وتتداني مسافات المكان ، ويلتقي
الاخ اخاه . وسيأتيك الحديث .

« هل فكرت في حياتك ان الفطرة حقيقة صافية ، والمدنية رياء
هو شئ ؟ اعتبر ذلك في ان ابناء الفطرة يسعون ابدآ الى تطبيق الاسم
على المسمى . فحيثما شعروا بتنافر بين الاثنين لجأوا الى الالتفاف
والكنيات او ما يدعونه الاسماء «المبقة» .

« مستر طمس ، مستر .. وطمس .. كلمتان لا تؤديان معنى قط
لابناء قرية لبنانية . وعلاوة على ذلك لا «تدوران» على ألسنتهم .
ولا تعبران عن شيء من الحلال التي اكتشفوها في الرجل . لذلك
كان من حسن ذوقهم وصدق فطرتهم ان لبقوا المستر طمس كنية
« بو معروف » .

« بو معروف ، وهل تدري ما يعنيه القروي اللبناني بكلمة :
«المعروف» ؟ خذ كل فضيلة عرفها الناس من آدم حتى اليوم : المحبة
الرفق ، الشهامة ، الصدق ، العدل ، المسألة ، اللطف ، الدعة ،
فكران الذات . خذ هذه الفضائل وامزجها يكن لك من مزيجها
«المعروف» . واذا اجمعت كلمة اهل قرية لبنانية على تلقيب رجل
بابي المعروف ، فاعتبر ذلك اصدق شاهد على ان الرجل فلتة من
فلتات الزمان .

« ما هي الا اسابيع قليلة حتى اصبح بو معروف عشتي صغارنا ،
وحبيب كبارنا . ورفيقنا في كل افراحنا واطر احنا . وشريكنا في
كل اعمالنا . وقاضينا في كل مشاكلنا . ومرجعنا في كل متعبة
يوشدة . وقبلما كان يمر بنا يوم لا نسمع فيه بمأثرة جديدة له يصنعها

في السر فتخبر عنها محبتنا في العلانية . ولو جئت لاسرد لك ما ثمره
لما استطعت . غير اني اذكر منها واحدة ، وهي انه منذ حل بومعروف
هذه القرية لم يهاجر من ابنائها ولا واحد . وكنا قبل ذلك لانستقبل
مهاجراً عائداً حتى نودع عشرة نازحين . فتأمل !

« اسألك ان تأمل لانك لو تأملت لرأيت في ذلك عجيبية .

« وكيف صنع بومعروف هذه العجيبية ؟ بطريقة هي البساطة
بعينها ، والبساطة البسيطة هي اجمل ما في الكون واندر ما في الناس .
فهذه عجيبية . لقد جعلنا بومعروف نحب قريبنا ، نحب تربتها وماءها
وهواءها ، وصخورها ، ووعورها ، وسهولها ، واوديتها ، وجبالها ،
لانه هو احبها بكل قواه . فانتقلت محبته اليها بالعدوى . جعلنا
بومعروف نشعرونهم ونؤمن ان لا حياة لنا بدون الارض ، وان
الارض لا تعطف الا على من يعطف عليها . فاذا لم تعطف علينا
ارضنا فليس في المشارق والمغارب بقعة غيرها تعطف علينا . اذ ان
من لا يعرف كيف يستعطف ارضه لا يعرف كيف يستعطف
سواها . ومن فقد عطف الارض فقد الحياة . فكان شريداً طريداً
ايما حل وان جمع من المال جبالاً .

« اذكر من اقوال بومعروف الشيء الكثير ، وليتي اذكره
كما فاه به . واليك بعضه مشوهاً بلغتي العوجاء :

« من الارض لباسك ، ومن الارض غذاؤك ، ومن الارض »
« مأواك . فما اجهلك تحتال على الحياة لتحصل على لباسك وغذاؤك »

« ومأواك من غير ان تلمس الارض. »
« لا بد للانسان في تحصيل رزقه من شريك ، فطوبى لمن اتخذ »
« الارض شريكه ، لانه ينام ملء اجفانه. »
« التجارة حيلة لصيد المال ، والمال حيلة لسرقة اثمار الارض »
« من شركاء الارض ، لكنها حيلة تقتل محتاليها. »
« اذا دفنت في الارض حبة فاعطتكَ عشر حبات فاين هو »
« الرجل الذي يحسر ان يدل عليك باصبعه قائلاً: «هوذا سارق؟» اما »
« اذا افقت فلماً فعاد اليك فلسين فكثيرة هي الاصابع التي تشير »
« اليك ، وان لم ترها . وكثيرة هي اللسنة التي تقول : هوذا »
« سارق وان لم تسمعها . غير ان الحياة ترى تلك الاصابع وتسمع »
« تلك اللسنة . والحياة تذكر ما ترى وتحفظ ما تسمع. »
« ان في التراب لعطراً لا تعرفه حوائت العطارين . »
« الارض هي الفاتحة في مصحف الوجود . من قرأها كان في »
« غنى عن كل ما حوته الكتب. »
« السعيد من سعد حيث كان . والتاعس من راح يبحث عن »
« السعادة في مكان آخر. »
« أحب الي روح نظيفة في جسم قدر من روح قدرة في جسم »
« نظيف . وأحب الي من الاثنين روح نظيفة في جسم نظيف . »
« الارض روح طاهر في جسم طاهر فلاصقوها بارواحكم »
« واجسامكم ان شئتم ان تكونوا من الطاهرين. »

« الناس عبيد الناس . انا عبد من في يده قضاء حاجتي . ومن »
« في يده قضاء حاجتي عبد من في يده قضاء حاجته . فعبدهم سيد »
« وسيدهم عبد . وهل اظلم من عبد اذا ساد او احقر من سيد اذا »
« استُعبد ؟ اما الذين قضاء حاجتهم في حوزة الارض فهو لاء احرار »
« لان الارض لا تساد ولا تستعبد فهي ميزان العدل الالهي . »
« الارض لا تحجل من ان تُتبت الوردة والشوكة والقمحة »
« والزوانة ، لان كل ما في جوفها طاهر . اما الناس فيستحيون »
« من اشواكهم وزوانهم ، فيحاولون بكل قدرتهم خنقها . لذلك »
« تخنقهم ، تعلموا الصدق من الارض . »
« رأيت رجلا ينخل التراب فيحتفظ منه بذرات صفراء براقية »
« ويطرح ما بقي . ورأيت آخر يبذر فيما طرحه الاول من التراب »
« حبات من الحنطة . وبعد عام كانت مجاعة في الارض . فرأيت »
« الرجل الاول راكعاً امام الثاني وفي يده نقود صفراء براقية »
« وسمعته يقول : «ألا بعثي صاعاً من الحنطة ولو بعشرين ديناراً؟» »
« وسمعت صاحب الحنطة يقول : لتد رضىت بغلتي من التراب فكُن »
« راضياً بغلتيك . »

« ليتني دوئت كل كلمة سمعتها من بو معروف فكلما كانت »
مواظ . وكان ينطق بها دون ما تصنع او تسكن ، ليس من على »
المنابر ولا في المجالس الخافلة ، بل في الحقول والكروم ، ويده قابضة »
على المحراث او المقصل او الرقش او المعول لانه ، كما قلت لك ، صار »

منا وفيما . يعمل اعمالنا ، ويلبس لباسنا ، ويأكل ما نأكل ، ويشرب ما نشرب . وكم كنت احب منظره في العباءة و « الشروال » و « البداة » : كلما صورته امامي فاضت عيني بالدموع . وها انا ابكي الان وقد سقطت دموع على هذه الورقة . فيا لضياها . لانك لن تراها ولن تشعر بها ، ولن تفهم المحبة التي فيها . كما اني اخشى انك لن تفهم ما سرده لك من اقوال بو معروف لانك لا تعرف دموع المحبة . ولا تفهم لغة الارض . و بو معروف كان يفهم لغة الارض ويعرف دموع المحبة .

☆

« بو معروف ، بو معروف ! لقد مات بو معروف ودفناه ، لكنه ما برح حياً في حقولنا وكرمنا وبيوتنا وقلوبنا . كلها يتحدث عنه . وافصحها لساناً صخرة شاهقة صماء ندعوها في هذه الجهات « عمود السحاب » . فقد كنا نتسلقها معاً انا و بو معروف ونستلقي على منبسط صغير في اعلاها ومن هناك نرسل بصرينا في الفضاء الازرق ونفتح صدرينا للنسيم ، او نتمدد على بطنيما فننطل على واد عميق فيه غابات من الحور والبلوط والسديان ، وجدول ينحدر من صدر الجبل فيكر مهللاً بين الصخور والاشجار .

« وكنا متمددين على ظهر هذه الصخرة منذ اسبوعين ، ساندِين رأسينا بأيدينا ، واكواعنا على الصخرة ، وبصرانا متغلغلان في الوادي وافكارنا تائهة مع انفاس الربيع . وكان النهار اهدأ وقد تجاوز عصره

ومن الوادي قد ارتفعت زقزقة الالوف من الخلائق المنجحة . ومن
بنا غرابان ونعما ، فالتفت الى ابو معروف وقال :

« — ما اجل الغراب يتكلم لغة الغراب ولا يحسد العنديل على
صوته . وما اجل العنديل يتكلم لغة العنديل ولا يحسد الغراب
على قوته . والغراب والعنديل ولدا الطبيعة وهي تحبهما بالسواء .
ليس الامر كذلك بين الناس . فكم من غراب بشري يشقى لان
ليس له صوت العنديل ! وكم من عنديل بشري يتعس لان ليس
له قوة الغراب !

« وسكت ، فعدنا الى السكوت ، وظلمنا فترة طويلة ساكتين .
« ونحن كذلك ، واذا برقيقى استوى فجأة جالساً وشد بكفيه
على صدره وقد اغمض عينيه كأن به صرعا قويا . فنظرت الى وجهه
واذا به كالزعفران . فدنوت منه ويديا ترتجفان رعباً وركتاي
تصطكان ، وقبل ان افتح في اشار لي بيده ان اعود الى مكاني وقال :
« — لا بأس ، لا بأس ، مسألة عرضية !

« فعدنا الى ما كنا فيه ، وعاد الى وجهه بوم معروف لونه وابسامته ،
غبير اني ما كدت انسى غرابية ما حدث حتى انتفض جليسي ثانية
وهب واقفاً وشدني بعنف من يدي قائلاً : « لنذهب ، لنذهب من
هنا ! » فامتثلت كالولد الصغير ، الا اني وقفت هنيئة كالشلول . فرق
بوم معروف لحالي ، والتفت الي وفي عينيهِ كآبة وحنان وسألني بلطف :
« — أو ما سمعت ؟ أو ما سمعت ؟

« فاخذتني الدهشة ، حتى خيل الي ان رفيقي أصيب بمس في عقله ، لاني ما ذكرت ان سمعت صوتاً غريباً ، او رأيت شيئاً خارقاً .

« — اسمع ، اسمع ! قال لي ذلك بو معروف واضعاً كفّه على كتفي ، فتكهربت للحال بانفعالاته النفسية ووقفت اصغي الى كل حركة وصوت علني اسمع ما يفسر لي تصرف رفيقي الغريب . فلم اسمع سوى جلبة الطيور وحفيف الاوراق وخرير المساء في الوادي .

« — اسمع ، اسمع ! اسمعت الان ؟ اسمعت ؟ . وهزني بو معروف من كتفي هزة شعرت معها كأن « عمود السحاب » اهتز تحت قدمي . ووقفت مبهوتاً احاول ان اذكر اخر صوت طرق مسمعي فذكرته . غير اني لم اجد فيه ولا شبه تفسير لذلك المشهد الحجّر ، فقلت :

« — نعم سمعت !

« قال : وما سمعت ؟

« قلت : كوكو . كوكو ! وهو صوت طائر لا يندر ان يزور هذه الانحاء في الربيع ونحن نسميه « طير الكوكو » .

« في تلك اللحظة تبدل وجه بو معروف عشرين شكلاً ، وتوالت هذه الاشكال امام عيني بسرعة البرق حتى ظننتني بحضرة جمهور من البشر تلعب بهم كل اصناف العواطف . ولكنهما ، كما قلت ، لم

تكن اللحظة . فما دريت الا وبو معروف عاد وتمدد على الصخرة
وجذبني بلطف لأعود وأتمد بجانيه كالسابق . ففعلت وانا كالمسحور
لا أدري ماذا اقول ولا ماذا افكره . الا ان بو معروف الذي سحرني
ما عثم ان حلني من سحره عندما التفت الي بعينيه الوديعتين وفتح
شفتيه القرمزيتين وكلمني بهدوء هكذا :
« — أعزني سمعك فأقص عليك حكاية الكوكو »

*

كان ما كان ، كان في قديم الزمان رجل لبناني وامراته ، وكان
الرجل من حارثي الارض الذين يأكلون خبزهم بعرق جبينهم والذين
يقول فيهم اللبنانيون « فلاح مكفي » ، سلطان مخفي » . وكان له
ولامراته ولد اسمه خطار يحلفان بالله مرة وبه عشرين مرة . وكان
الثلاثة قانعين شاكرين سعيدين بقدر ما يسمح الله لثلاثة من البشر
ان يكونوا سعيدين .

وكان لابي خطار وام خطار جاز ارمل يحرت الارض كذلك
وله ابنة اسمها زمرد ، يحلف بالله مرة وبها عشرين مرة . وهذا الجار
كان من حارثي الارض كذلك وكان سلطاناً مخفياً .

ومن غير ان يتبادل ابو خطار وام خطار مع جارهما كلمة واحدة
بشأن ولديهما ، كان معروفاً عندهم وعند كل اهل القرية ان خطاراً
لزمرد وزمرد لخطار ، مثلما كان معروفاً عند خطار وزمرد ، اذ لم
يكن في وسع احدهما ان يصور نفسه بعيداً عن رفيق صباه وقتوته ،

وقد مزجت الايام روحيهما باساليها السحرية التي تفوق كل ادراك •
يقولون ان الحب اعمى • وذلك خطأ • بل الحب مبصر ، ولكنه
ينظر بعين الجمال فيرى كل شيء جميلاً • لذلك كان الحب خلاصة
الحياة ، فتي أحب الناس الناس تقلصت عنهم كل اطلال الشناعة
قرأوا كل ما فيهم جميلاً • ومتى رأى الناس كل ما فيهم جميلاً عرفوا
الحب • ومتى عرفوا الحب عرفوا الحياة • ولان خطاراً وزمرداً عرفا
الحب ما كان احدهما يرى في رفيقه غير الكمال •

وكانت سنة ١٩٠٠ وكان صوم الفصح ، فقر رأي ابني خطار وام
خطار وجارهما ان يفرحوا بخطر وزمرد بعد الفصح بقليل وراحوا
يعدون العدد للعرس •

وحدث في هذه الاثناء ان عاد من اميركا الى القرية واحد من
ابنائها اسمه فارس خبير وله من العمر نحو الاربعين • فاقبل اهل
القرية للسلام عليه وللاستعلام عن ابنائهم الغائبين • وعادوا من
عنده معجبين بزيه الاقربى وباحاديته عن عجائب اميركا وبالتحفظ
التي جاء بها من تلك البلاد الغريبة ، ومنها ساعة كوكو •

هل رأيت في حياتك ساعة كوكو ؟ هي من نوع الساعات
الدقيقة ، لكنها تعلن الوقت لا بقرع الناقوس بل بلسان طائر
اصطناعي في جوفها • فتي كانت الساعة الثانية عشرة — مثلاً —
انفتحت في اعلاها طاقة وخرج منها ذلك الطائر وردد « كوكو »
اثنتي عشرة مرة ، ثم عاد الى جوف الساعة وانتقلت الطاقة خلفه •

وعاد أبو خنطار وامرأته وابنه وابو زمرد وابنته من عند فارس
خير وكل حديثهم في الطريق عن ساعة الكوكو . وكانت زمرد
أكثرهم إعجاباً بها حتى انها تمت لو سمحت لها اللياقة ان تبقى في بيت
فارس خير ساعات متوالية لترى ذلك الطائر الغريب يخرج من
طاقته العجيبة ويهتف : كوكو !

مرّ اسبوع لم يكن فيه من حديث للقوم الا ساعة الكوكو
وصاحبها . فمن معجب بطلاقة لسانه في الانكليزية ، ومن معجب
بعصاه التي هي عصا ومظلة معاً ، ومن معجب بالكالوش الذي كان
يحتذيه كلما افلتت من السحاب ولو بضع قطرات من المطر . واعجاب
زمرد بساعته ما كان لينقص بل ليزداد .

وقرب وقت العرس فغطت به القرية وتناست القادم حديثاً
من وراء البحار . وكانت ليلة العرس وكل شيء قد اعد على آخر
طراز ، وابو خنطار وامرأته وابنتها وجارهما في السماء السابعة من
السعادة ، الا زمرد فقد كانت في سماء غير سماءهم ، لانهم طلبوها
فلم يجدوها .

/ وبالاختصار هربت زمرد مع فارس خير ، وقبل ان يفيق
اهل العروس من هول فاجعتهم ويدركوا الدبيسة ويرسلوا الى
بيروت من يبحث عن الهاربين ، كان الهاربان على ظهر باخرة وجهتهما
مغرب الشمس .

بعد اسبوعين قضى ابو زمرد حيرة على ابنته وحرقة من هوانه

وخيته بين الناس • فكان اول ضحية من ضحايا ساعة الكوكو •
اما ابو خطر وام خطر فتجلدا على مصابهما ، وساعدهما على
التجلد ان خطراً لم يذرف دمة ، ولا عبرت بشفتيه لعنة ، ولا
انطلقت من صدره تهدة • فقالا ان من الهمة مثل هذا الصبر
سيمعطيه « نصيباً » يكون خيراً له من نصيبه الاول « فنحن بالتفكير
والله بالتدبير »

• •
وكان يوم خرج فيه خطر الى الحقل ليحرث • وبينما هو يحرث
وقف فجأة في منتصف الثلثة والتفت الى نفسه وكل ما حواليه وجد
في مكانه ثم خاطب نفسه هكذا :

« حتى متى يا خطر ، حتى متى ؟ لقد دفنت في هذه التربة
عشرين من سنينك ، فماذا انبت لك ؟ ما الفرق بينك وبين هذه
الصخور ؟ هي صماء بكاء ، وانت اصم ابكم • ما الفرق بينك وبين هذه
الثيران ؟ هي تحرث الارض لتأكل اعشابها ، وانت تحرث الارض
لتأكل بقولها واثمارها ! ما دمت على هذه الحصيرة يا خطر فحياتك
لا طويلة ولا قصيرة •

« علام تمهش قلبك الحية يا خطر ، وفكرة الانتقام من فارس
خير وزمرد تسلبك لذة النوم والطعام ؟ من انت بين الناس وماذا
تملك وماذا تعرف ؟ انت لا شيء ولا تملك شيئاً ولا تعرف شيئاً •
« لقد طرحتك زمرد من وراء ظهرها وآثرت ساعة الكوكو
عليك • فباي حق تلوم زمرداً يا خطر ؟ من انت من ساعة الكوكو

وما فهمك من فهم مخترعها ، وما بلادك من البلاد التي صنعت
اجزاءها وركبت منها آلة غريبة عجيبة ؟ وما ادراك ان ليس في
تلك البلاد ما هو اعجب من ساعة الكوكو بكثير ، فما اسعد تلك
البلاد وساكنيها وما اشقاك في بلادك !

« عيب عليك يا خطر ان يسلبك قلبك رجل كفارس خير ،
وما كان فارس خير ليسلبك قلبك لو كان لك ماله وفهمه ومعرفته .
وفارس خير قد خاض من اجلها البحار . فما الذي يربطك بهذه
الصخور والوعور ؟ ام انت جبان ، ام انت ميت ولا تعرف انك
ميت ؟ عيب عليك يا خطر ان تغلبك ساعة الكوكو ! »

هكذا خاطب نفسه خطر ، ولاول مرة في حياته رأى كل ما
وقعت عليه عيناه شيناً وشائناً : ثيرانه ومحراثه ، واشجاره وكرومه
وصخوره . حتى ان التربة الطريئة التي كان ينشرح لانفاسها صدره ،
وترتاح قدماه اذ تغرقان فيها ، بدت لعينيه قذى وتنانة ، والشمة التي
ثلما بمحراثه في الارض بدت له قبراً يحفره لنفسه بيده . والصخور
المنتشرة في عرض الحقل وطوله ، والاشجار المتمايلة بينها ، والعصافير
المرنمة على الاشجار باتت كما لو كانت تنوح عليه او تهزأ به . فرفع
خطار يده عن محراثه وترك ثيرانه ، وادار ظهره الى الحقل ووجه
الى القرية ، وهناك اعلن والديه انه مززع على السفر الى اميركا ، وان
لا مرد لعزمه .

وكانت مناحة ، وكان عويل ، وكان اخذ ورد لكن بلا

جدوى ، وسافر خطار الى اميركا .

✱

شقي خطار في بدء هجرته ، وجرع من المرارة اكواباً ، وعضه
الندم غير مرة وابتر من مقلتيه اكثر من دمة ، وخيم اليأس في
روحه ، ومشت في قلبه الحمية . الا انه ما كاد يستسلم لقنوطه مرة
الا انهره صوت داخلي قائلاً : عيب عليك يا خطار ، شد حيلك
واذكر ساعة الكوكو !

وشد خطار حيله وادرك انه في بلاد مفتاحها الريال ، وان لا
حياة فيها لمن لا مفتاح بيده ، وان من لا يقاتل من اجل ذلك المفتاح
يظل خارجاً او تدوسه ارجل المقاتلين . فراح خطار يقناتل بيديه
ووجليه واطافره واسنانه . ولم يبق له من هم سوى جمع ثروة تفتح
امامة عجائب اميركا وغرائبها ، وتكشف له اسرارها ، وترفعه الى
مستوى ساعة الكوكو .

وخدمه الحظ بعد حين ، فانفتح امامه باب للكسب ، وتفتحت
بعد ذلك الباب ابواب لان المال يجذب المال ، وكان اول ما ابتاعه
خطار من باكورة ارباحه ساعة كوكو ، واذا ذاك تولدت فيه عزيمة
جديدة لانه شعر انه قد ربح اول معركة في ميدان جهاده الجديد .
وفي لذة الانتصار نشوة تدفع المتصمر الى خوض معارك جديدة للفوز
بانتصارات جديدة .

وراحت الايام ، وجاءت الايام ، وكانت المجرة الكبرى . فافاق

خطار واذا به صاحب مغالقة تجارية شاسعة . وثرورة تربو على المليون .
وليس ما يذكره بولديه اللذين قضيا في اثناء الحرب وبما كان فيه
وصار اليه سوى ساعة الكوكو المعلقة على جدار من جدران منزله
الفخم . بل ان ساعة الكوكو ما كانت تذكره بذلك الا فيما ندر .
وانتقى خطار لنفسه ابنة سورية مولودة في اميركا اسمها « اليس »
وانخذها شريكة لحياته .

ليس كالمصائب منها للانسان . فكم من سعادة تأتينا في زي
مصيبة ، ومصيبة في زي سعادة !

اما مصيبة خطار فكانت زوجته « اليس » لانه ما طال ان ادرك
ان بينها وبينه هاوية لا سبيل الى مد جسر فوقها . وان ما حسبه
حبا منها نحوه لم يكن الا تعطشا الى ماله وما يبتاعه ماله من ملذات
الدنيا . وما حسبه ميلا منه اليها لم يكن سوى رغبة خفية في الهرب
من وحدته ووحشته . وكم يهرب الانسان من وحشة الى اوحش
منها كمن يهرب من الدلفة الى تحت الميزاب .

في فضاء الحياة سبل شتى ، فكل انسان سبيل ، ولكل امسة
سبيل . حتى لكل قارة سبيل . وهذه السبل تلتقي وتفترق في شبكة
لا تدرك اطرافها . ولعل اغرب نقطة في تلك الشبكة هي النقطة التي
يلتقي عندها سبيل الشرق بسبيل الغرب لان الشرق يسير الى محجة
الحياة ومرتبة قلبه ، وجياده عواطفه وافسكاره ، واعنته ايمانه

وتقاليدہ المتصلة بالآزال • بينا الغرب يسير في مركبة روحها البخار
او الكهرباء وعضلاتها لوالب ودواليب من حديد وفولاذ ، واعتها
ادعاؤه واعتداده بنفسه • وكلها من مبتدعات فكره • فيلتفت الغرب
الى الشرق ويحييه هازئاً : مرحباً يا جار ! اراك تجدد وتجد وتجد
وتبقى مكانك • ويمضي في سبيله فخوراً بمركبته ظاناً انه سيسبق
الشرق الى المحجة ، لان مركبة الشرق محجوبة عن عينيه •

وينظر الشرق الى الغرب فيرى عظمة مركبته ويسمع حشرجتها
وطقطقتها ، فتهيره حركاتها ، وتسحره سرعتها ، فيقول في نفسه :
المجد لك يا جار ، المجد لك يا جار ! اين مركبتي من مركبتك ؟ الا
اشفت علي واذنت لي ان اتعلق بدواليبها ؟

كذا يقول الشرق عندما يلتقي الغرب ، فيطرح مركبته ، ويبيع
روحه ، ليحصل على مركبة كمركبته جاره •

كذا قال خطار في نفسه يوم ادار ظهره الى ثرائه وحقله ،
ووجهه الى البحر • فاصطنع له مركبة شدها بمركبة الغرب ، وراح
يطوي في ساعة مسافات ما كان ليطويها في سنة • فاسكرته السرعة
ولم يبق له من الوقت فرصة ليلتفت الى ورائه او الى يمينه او يساره ،
او ليسأل نفسه الى اين هو سائر • لكنه عندما اصطدمت مركبته
بأول عثرة في سبيلها — عثرة الشقاء البيني — وجد خطار نفسه
كالحموم وقد غمسته في ماء ببرودة الثلج •

بدأت صحوة خطار بعد زواجه بأسبوعين ، ومن الغريب ان

فاتحة تلك الصحوة كانت فاتحة سكرته ايضاً — ساعة الكوكو •
 وذاك ان « اليس » طلبت اليه يوماً ان ينزل تلك الساعة عن الجدار
 وي طرحها خارجاً لانها « آلة تنك » قديمة ومنظرها يشوه جمال
 القاعة وان يأتيها بساعة من الطراز الجديد • واذ لم يجبها خطار الى
 طلبها انهاالت عليه بوابل من التقرير قائلة : انه من الطقم القديم •
 وانه فلاح باذواقه ومداركه • وانه لا يعرف في الدنيا غير تجارته
 ولا يفهم لغة الا لغة الريال • وانها تحجل به امام رفاقها ورفيقاتها •
 وانتهت بان لعنت اليوم الذي ربطت فيه حياتها بحياته •

وتلت تلك الصدمة صدمات • فخاطب خطار نفسه قائلاً :
 « وحك يا خطار ، ما الذي فعلته بنفسك ؟ لقد شددت مر كبتك
 بدواليب هذه المركبة عشرين عاماً فانتهيت حيث ابتدأت — بساعة
 الكوكو — بل قد رجعت القهقري • فمن انت اليوم ؟ وماذا
 تعرف وماذا تملك ؟

« لقد كنت رجلاً بين الرجال ، لك زند قوي مفتول ، وصدر
 عريض مكين ، وقلب شجاع سليم • وكنت سيداً في بيتك وفي
 حقلك وفي كرمك • وكنت محبوباً من والديك ، مكرماً
 من اهل قريتك • اما اليوم فمن انت ؟ سجين معلق بدواليب مركبة
 لا تهدأ طرفه عين ، تكرر وتكرر • والله يدري الى اين •
 اذا انت قطعت رباطك منها وقعت مهشماً على الطريق ، واذا بقيت معلقاً
 بها رأيت روحك بعينيك تنسل منك وتسحق رويداً رويداً تحت

الدوايب • لقد شئت ان تقهر ساعة الكوكو فقهرتك ، وان تملكها
فملكتك • اقم غزوتها في عتر دارها فاستقبلتك بالترحاب لتجعلك
لولباً من لوالبها • بل انت احقر من لولب ، واحقر من مسمار في
هذه الالة الجهنمية • ويحك يا خطرار فقد كنت كل هذه السنين
كلهر يلحس المبرد ، فيتلذذ بطعم الدم السائل من لسانه جاهلاً
انه دمه •

« وماذا تعرف يا خطرار ؟ تعرف لغة جديدة ، وبلاداً جديدة ،
وازياء جديدة • فما كان اغناك عن معرفة ليست معرفة ، لانك يوم
كنت جاهلاً كنت تعرف انك جاهل ، اما اليوم فتجهل انك
لا تعرف •

« وماذا تملك يا خطرار ؟ كان زمان وكان لك ثيران واغنام وحقول
وكروم وبيت كان بحق بيتك • اما اليوم ••• في بابل الجديدة
بناية هائلة ، وفي تلك البناية غرف عديدة ، وفي بعض تلك الغرف
رفوف ، وعلى تلك الرفوف منسوجات غريبة لا تدفع الحر ولا القر
عن مخلوق • وتلك المنسوجات هي ملكك ، لكنك لن ترتق بها
خروق فؤادك • ولن تحوك منها احلاماً جديدة ، ولن تكفن بها
افكارك السود •••

« وفي مصرف من مصارف بابل الجديدة خزانات من فولاذ •
وفي احدى تلك الخزانات اوراق وسندات ورهون مالية • هي
ملكك كذلك ، لكنك لن تبتاع بها نعاساً لا جفانك ، ولا صفاء

لفكرك ، ولا حرية لروحك ، لا ولن تستعيد بها والديك ولا
زمرداً !...»

ومر امامه خيال زمرد ، ولله حال اقتصب بجانبه خيال اليس .
فراح خطاير يقابل بينهما عن غير قصد منه : « ما كان اجلك يا زمرد
واحلاك ! ما كان اتقى بشرتك وانعمها ! والدم القاني الصاعد من
قلبك البتول الى وجهك الطهور ما كان ازكاه واصفاه ! وعينك
اللوذيتان ما كان اودعها واقدسها . وقبلاتك ، آه قبلاتك كم كان
قيما من البلسم والسلام !

« ما كنت تلبسين الحرير ولا كانت اللآلىء تثقل عنقك . ولا
كنت تتامين على سرير ناعم . الا انك في البيت كنت ملاكاً حارساً ،
وفي الحقل بتولاً مولدة مع الارض البتول المولدة ، وكنت راضية
بالحياة ، والحياة راضية بك . ما عرف قلبك الخيانة قط . كلا ، فانت
لم تخونني عهددي ، بل انخدعت بساعة الكوكو ، فلا لوم عليك
لانك ابنة حواء ، وحواء انخدعت بجمال الثمرة المحرمة . ولا لوم
عليّ فانا ابن آدم ، وآدم انخدع بانخداع رقيقته . اين انت اليوم ؟
وهل انت راضية بالحياة والحياة راضية بك ؟

« واليس . ها هي بزنيها المارين وصدرها المكشوف ، وشعرها
المجروز ، وشفتيها المحمرتين وخديها الطليين بالمساحيق ، واهداها
السودة ، وعينيها الجائعتين الى المشاهد المهيجة ، ويديها الناعمتين
المرصعتين بالجواهر ، وصدرها الخاوي ، وخصرها الضامر ، وساقها

المغلقتين بالحرير الخادع الشفاف ، ورجليها المشدودتين بإسيار لماعة ،
الواقعتين على الهواء . ها هي ، حياة مقنعة بالموت . وقناعها في
اعتقادها ان في ذلك رمز حياتها ، رمز ما تدعوه حرية ومعرفة
وتمدناً ورقياً وجمالاً وسعادة . ها هي وقد انتقلت اليها عدوى الحركة
الدائمة ، تبحث عن سعادتها في الغبار الذي تثيره تلك الحركة --
في المراقص ، في الملاهي ، في الاوتوموبيلات ، في الحلي والحلى ، في
التنقل مع ازياء المعيشة الخارجية يوماً بعد يوم ، وفي الثثرة عن هذه
الامور ، حتى كأنها مجبولة من زبد الحياة ولا روح فيها الا القوة
الخفية التي تسير بها من لهوة الى لهوة ، ومن علفة الى علفة ، والتي
تنزع عنها ثيابها ليلاً وتلبسها اياها نهاراً .

« او لست ملوماً في ذلك يا خطر ؟ لقد افلست من يدك زمرد ،
فلمست بعد مسؤولاً عنها . اما ليس فعك ، وقد يمكنك ان تنتشلها
من الرغوة الغارقة فيها . وكيف تنتشلها وانت غريق مثلها ؟ »
وتهد خطر حرقه على زمرد وعلى اليس وعلى نفسه . وحاول
ان يفلت من افكاره فلم يقدر لانها اخذت تساوره كل يوم بقوة
جديدة حتى رأى نفسه كاللاشي على الحراب وبين الحراب وتحت
الحراب . وعبثاً حاول ان يستعيد لذة العمل في التجارة ، او لذة
الاقتراد بنفسه ، لان تجارته تحولت في عينيه الى اتون يحرق فيه
حياته . وارباحه الى رماد تلك الحياة المحروقة . واحس كأن نفسه
انفصلت عنه فلم تبق النفس التي كان يأنس لمجالستها ومسايرتها .

واصبح يشعر في حضرتها بوحشة مظلمة فيسعى الى الهرب منها .
ومن الغريب انه في مثل هذه الاضطرابات النفسية كان يهرب الى
خادمة سورية تولت ادارة بيته ايام عزوبته فابقاها عنده بعد زواجه
واسمها سعدى وكانت طاعنة في السن . لكن قلبها كان طافحاً
بالمعطف وروحها كانت كتاباً مفتوحاً ، لأن السنين التي قضتها في
اميركالم تقض على شيء من جمال جوهرها الفطري ولا سلبتها شيئاً
من بساطة القلب ولهفة الانوثة التي يكسبها العمر سحراً جديداً .
فكانت تغار وتحزن على خطر كمالو كان ابنها . وعندما تناديه لا
تناديه الا « يا ابني » . وكان خطر يعاملها كمالو كانت امه . وعندما
تشدد عليه وطأة الوحدة كان يسرع الى سعدى لينضوي تحت
جناحيها كما يسرع الفرخ الى امه ليختبئ من العاصفة تحت ريشها
الداقي الناعم .

وكانت ليلة سلام فيها خطر لمشيئة زوجته ، ورضي ان يتناول
طعام العشاء معها في نزل من نزل المدينة وان يكون رفيق اليس
الامريكي ضيفها . ورفيق اليس هذا كان من الشبان الذين وضع
الله في افواههم ألسنة طويلة وجعل محركاتها في بطونهم بدلا من
رؤوسهم وقلوبهم . وما اكثر ما هم على سطح هذه الغبراء !

وفما الثلاثة حول المائدة ، واليس ورفيقها يتحدثان عن رقصة
جديدة ، اذا بالخادمة التي كانت تأتيهم بالطعام تقدم الى خطر وتناول
ورقة صغيرة مطوية وتقول : « هذه من السيدة الواقعة بجانب ذلك

الشباك خلف الستار !...» وأشارت الى شباك لا يراه الا من كان الى مائدة خضار .

فتح خضار الورقة وقرأ ما فيها . فامتقع لونه في الحال ، وقدحت عينها اليس شراراً واكفر وجهها وعض رقيقها الامير كي على شفتيه السفلي وقطب حاجبيه وغمز اليس غمزة ذات معنى كأنه يقول لها لقد انفضح السر ، فهان الامر واصبح الطلاق قريباً !

غير ان خضاراً عاد فامتلئ نفسه . ونهض وانطلق الى الشباك حيث السيدة باقظاره ، وما حدثها قليلاً حتى بدت على وجهه آثار الدهشة والحيرة ، ثم مد يده وصافحها ، ثم ناولها من جيبه بطاقة عليها اسمه وعنوانه . ثم صافحها ثانية ، وودعها باسماء وهي تبسم له . لكنه ما عاد الى حيث كان حتى وجد زوجته ورقيقها واقفين وقد ارتديا ثيابهما استعداداً للذهاب ، فادرك ان تصرفه قد اضرم نار ثورة . عاد الثلاثة في السيارة الى البيت من غير ان يفتح احدهم فاه في الطريق . لكنهم ما دخلوا البيت حتى تدفق من فم اليس سيل من الشتيمة والتقريع والتأنيب : يا للفضيحة ! يا للعار ! أعلى مرأى اناس من نخبة القوم تشعني هذا التشنيع ؟ اذا لم يكن لك بد من خلييلة ايها الخائن أفلا انتقيت لك واحدة ارفع مقاماً من خادمة في مطعم ؟ لست اطلب منك اعتذاراً ولا شروحا ، فقد انتهى الامر . وكل شيء واضح كالصبح . وهل اكذب عيني ؟ لا حديث لك معي بعد هذه الليلة ولن يرتفع فوق رأسينا سقف واحد بعد . اذا كان لك من

حديث فليكن مع محامي ! ...

وظلت اليس تحوك على هذا النوال ورفيقها الاميركي « يصب على يدها » مردداً بلهجة من لحقت به اهانة فظيعة : الحق معها ، الحق معها • فمن ذا يصبر على اهانة كهذه الالهانة • اني في حياتي كلها ما تلوثت بمثل هذه القذارة !

الى ان قرع جرس الباب ودخلت المرأة التي حدثها خطار في المطعم وقد نزع عنها ثياب الشغل وارتدت ثياباً بسيطة تذيب الفقر والذل • فما لمحتها اليس حتى كاد صوتها يحترق السقف واخذت الشتائم الجارحة تتساقط من بين شفتيها تساقط البرد من السحاب في يوم معصف •

كل ذلك وخطار واقف كأنه قد من صخر • وسعدى التي هرولت لصراخ سيدتها تنظر يمينا وشمالا فلا تفهم شيئاً ، فتغمض عينيها وترسم علامة الصليب متممة : نجنا يا الله ، نجنا يا الله !

والمرأة الغريبة جامدة كشيخ من عالم آخر • وكأنها بعد قليل من التفكير فيما سمعته ورأته ادركت ان لها علاقة بذلك الشهيد • فتقدمت من اليس وارادت ان تقول كلمة ، فلم تعطها اليس فرصة بل صاحت بها : ابتعدي عني لا تلمسيني ! ودفعتها بعنف واخذت بيد رفيقها الاميركي وباقل من لمحة الضرف خرجت واياه من البيت الذي ارتج باطرافه عند قفلها للباب • وكان ان المرأة الغريبة حين دفعها اليس تلك الدفعة العنيفة هوت على سعدى الواقعة وراءها ، فهبطت

الاثنان الى الارض وهتفت سعدى : « اي نخبنا يا ... » وكان ذلك آخر ما نطق به لسان تلك المسكينة .

حينئذ دقت الساعة : كوكو ، كوكو . انتي عشرة مرة . فاجفل خطار وفرك عينيه كمن افاق من غيبوبة طويلة . ولاول وهلة لم يصدق ما رآه . سعدى التي كانت له اكبر تعزية ، سعدى التي كانت تمثل في عينيه سوريا القديمة ، ابنة الفطرة والبداهة والبساطة غير المنقعة ، والعاطفة الوثابة من اعماق اعماق القلب ، سعدى مطروحة على الارض بلا حراك .

وبجانب سعدى امرأة مذعورة ، مضضعة الافكار والقوى ، شريدة طريدة ، فقيرة حقيرة . تلك المرأة كانت وردة فواحة في تربتها ، فمن لها ان وراء البحار تربة اصلح من تربتها واغنى ، وها هي الان في تربتها الجديدة لا لون ولا اريج بل اشواك مسنة واوراق ذاوية . ولو شاءت ان تعود الى تربتها لما وجدت الى ذلك سبيلا . لانها ام خمسة بنين ولا معين لهم سواها ، اذ ان زوجها لا يعرف من الشغل اكثر من رفع القدح الى شفثيه ومن عد الاوراق على مائدة القمار .

واليس ؟ مزيج غريب ، مزيج الجحش ما في الشرق من واسع بزخرف الحياة مع ما يطفو على وجه بحر الحياة الغربية المزجر من رغووة وفتاقيع .

وهو — هو خطار مسعد — من هو وما شأنه من ذلك الشهد؟

ومرت امام خطار خيالات ماضية كما تمر البروق ، متقطعة متكررة
ناشبة من طرف الافق الى طرفه ، فرأى نفسه في الحقل وبده على
محراثه . وامامه ثوراه الجلودان الامينان ، وتحت رجله تربة ارضه
اللينة السخية . وفي صدره انقاسها وانقاس اعشابها وازهارها . وفي
اذنيه ترانيم العصافير المرفرفة على افنان اشجارها .

ثم عاد فالتفت حواليه فرأى الموت عن يمينه والحية عن يساره ،
وسمع جلبة المدينة التي لا تنام . فخيّل اليه ان المدينة برج هائل قائم
على الوف الدواليب التي تكرر بسرعة ابليسية ، وان تلك المركبة
الجنمية تنحدر من علو جبل قمته في السحاب واركانه في هوة لا
قرار لها ، وانها تسير على صدره . ورأى الراكبين فيها يتناهبون
ويتعاضضون ، مقهقهين ، مولولين ، متسابقين الى حيث لا يدرون .
جاهلين انهم سائرون الى حيث تسير بهم المركبة لا الى حيث يرغبون .
ورأى بين هؤلاء الملايين الوفاً من ابناء بشرته وقد زجهم الاوهام
والمضامع بين الراكبين فداست بعضهم ارجل المتسابقين . وعلق الاخر
بدواليب المركبة فراحوا يكرون معها سكارى وحيارى ومولولين ،
يلتفتون الى الوراء ويودون الافلات والرجوع فلا يجدون الى ذلك
سيلا . وفي اعلى البرج المنحدر من القمة على الوف من الدواليب
رأى خطار ساعة هائلة . وفي اعلى الساعة طاقة يخرج منها بين الفترة
والفترة طائر ميكانيكي كبير ويصرخ بابناء البرج : « كو كو كو كو »
فيخرون على ركبهم ساجدين ويتهامسون فيما بينهم قائلين : « الساعة

كيت وكيت ...

وانحنى خطر فوق سعدى والتفت الى المرأة الواقعة بجانبها ،
وبصوت تخنقه العبرات قال : « زمرد ! ساعديني ... » وحمل الاثنان
الجثة الى غرفة مخاضية .

*

هنا وقف محدثي وتهد طويلاً ثم استوى جالساً وقال :
— واليوم ها انذا يا اخي اقض عليك حكاية ساعة الكوكو .
فصدقها لان من قصها عليك هو خطر نفسه ! — « ١٩١٥ »



انك راسك ضيت ، كندم مديني اول
دعكم ، آية نيا ب فلهي غدي فلهي .
تجيد — نية ندي

منتزها الجديدة

قرية عيرون من اعمال لبنان مشهورة بامور كثيرة . كل من حفظ
 آية داود النبي ان الحمر تفرح قلب الانسان ينجرك بمجودة نبيلها
 وعرقها . وكل صاحب معمل للحريز في لبنان ينيك بطيبة الشرائق
 التي يربيا اهل تلك القرية . واذا شاء فلاح ان يشتري بقرة غزيرة
 الدر او ثوراً قوي العضل لا يتردد في ان يرسم الصليب على وجهه
 وان يوجه اول خطاه نحوها مؤمناً من كل قلبه انه سيجد فيها ما
 تطمح اليه نفسه . وكذلك الشاب الذي اجتاز مرحلة طويلة من
 العمر وادرك ان الحياة لا تفتح جراب ملذاتها ولا تصب نعمها على
 العازبين في هذه الدنيا وقرر في عقله ان يضم بقية سنينه الى سني
 احدى بنات جدته حواء ، ينهض مع الفجر قبل جيرانه واهل قريته
 ويتخذ نجمة الصبح دليلاً الى تلك القرية عينها . يقضي هناك ليلة
 او نهراً ولا يعود — الا نادراً — سوى من بعد ان يودع فواده
 عند من ستصبح « أمته » عما قريب .

ولكن النبيل والعرق والشرائق والبقر والعرائس ليست
 الاسباب الوحيدة التي انالت عيرون محلاً سامياً كهذا في اعين

جاراتها • بل هناك قوة اخرى رفعتها فوق كل قريناتها • وتلك القوة هي الشيخ بطرس الناقوس، او كما يدعوهم اهل القرية والجوار وموظفو المركز — الشيخ ابو ناصيف •

ورث ابو ناصيف المشيخة ابا عن جد • وشيوخ القرية الذين ادرکوا اباہ من قبله في ذاك المركز اقرؤا بصوت واحد انه يفوق المرحوم بدرجات • اولاً — ابو ناصيف كاتب قارئ والمرحوم لم يكن يعرف من حرفة القلم سوى غمس خنصره في المحبرة ليمسح وجه خاتمه بالحرثم ليلبس الورقة بلسانه وينفخ على الخاتم ويلصقه الى الورقة بدقة وتأن فتظهر هذه الكلمات بخط فارسي جميل : « الياس بطرس الناقوس شيخ قرية ميرن » • كثيرون كانوا يتعجبون كيف تمكن الحفار من ضم هذه الاسماء كلها على خاتم عادي صغير الحجم ، ولكن هذا الامر كان من بعض الفضائل التي اكدت للمرحوم انه اعظم واكبر من بقية من حوله •

ثانياً — المرحوم عاش ومات وهو ينام على الارض ويأكل على صينية من القش بملعقة من خشب او بيديه، اما ابو ناصيف فقد اقتنى « ناموسية » وطاولة للاكل وكراسي للجلوس السخ • واذا نزل به ضيف كريم لا يندر ان يخرج من بعض صناديقه ملاعق وسكاكين وفرتيكات ، مع انه — على قول العارفين — يفضل ان يتبع خطة ابيه وكثيراً ما يترك الفرتيكة والسكاكين ويعمد الى اصابعه حتى امام الضيوف • هو يفضل كذلك النوم على الارض • اما الناموسية فقد

اقتناها لاجل « الخشرات » .

ثالثاً — المرحوم عاش ومات وعلى رأسه طربوش فرنساوي لف حوله منديلاً أزرق وعلى ساقيه شروال من الختام المصبوغ وعلى وسطه كمرٌ كان يضعه دائماً تحت مخدته عندما يسلم نفسه لاله النوم (والبعض يقول انه مات وذلك الكمر تحت مخدته) اما ابو ناصيف فقرأه يتجول بطربوش عزيزي (نسبة لعبد العزيز) وقباز وزنار من حرير ، ولستيك على الموضة . وفي الاعياد الكبيرة او عند استقبال ضيوف كبار كالتماثمقام او المدير او المطران وغيرهم لا يندر ان تراه في بذلة افرنجية وقيص مكوي وطربوش مائل فوق جبهته يلامس حاجبه الايمن (اخبرني من عرف ابا ناصيف جيداً انه ظهر مرة عند استقبال القائمقام وعلى صدره ساعة ذهبية واذا سأله سعادته عن الوقت تلغم وانقلب لونه واجاب ان الساعة واقضة . ومن ذاك الحين لم يعد احد يرى الكسكست الذهبي على صدره..)

رابعاً — ابو ناصيف « يشمس » في الكنيسة دائماً على خورس اليمين ويقرأ « ابانا » و « نومن » بصوت جهوري ولبس لاجد حق ان يفعل ذلك في حضوره . اما على زمان المرحوم فالحختار كان يقرأ ابانا ونومن وكان ينال اول بركة من يد الكاهن .

هناك اشياء كثيرة يفوق بها ابو ناصيف المرحوم والده بخبركم عنها كل من سالتهم في عيرون وجوارها . لو سالتهم لعلمتم مثلاً ان ابا ناصيف له « هيمة ووهرة » في المجالس وكلمة في المحكمة لم تكن

والده وحيثما وقع اهل البلدة في مشكل او مأزق كانت يد ابي ناصيف
هناك ولا يمضي كثير من الوقت حتى يزول الخلاف وتحل
العقدة .

وهناك مزية اخرى يفوق بها ابو ناصيف اهل قريته وذاك انهم
عندما يبدأون بعد البيوت التي نزع بعض اعضائها الى اميركا يصلون
الى بيت الشيخ ويقفون لانه هو البيت الوحيد في عيرون الذي لم
يدفع بعد جزية لكونلمبوس .

الاطفال والشبان والسيوخ كلهم يوقرون ابا ناصيف ويحترمون
جانبه لكن بعض النساء الثائرات والكثيرات القلائد كثيراً ما
يتداولن في جلساتهن السرية حديثاً ليس محموداً عن الشيخ . اما
حسداً او بغضاً . لكنهن يتناقطن الاخبار بانهن احياناً كثيرة يسمعن
صراخاً في بيت الشيخ وطالما رأين الشيخة مورمة الرأس مزرقه الوجه
دامعة العينين . هناك امرأة اسمها برباره تهمس احياناً لرفيقاتها انها
لما اخذت مرة للشيخ سطلاً من اللبن وجدته ماسكاً بخناق الشيخة
والسم يقطر من عينيه ، وشارباه يرتجفان ، والشيخة مطروحة على
الارض وشعرها يستر وجهها . وبرباره هذه نفسها تنقل عن الشيخ
اخباراً كثيرة . منها انها وجدت الشيخة يوماً مسجونة في الاصطبل
مع البقر والحيل تكاد تموت جوعاً . وانها انتها برغيف من الخبز .
ومنها ان الشيخ « كتب » للشيخة بالموت الخ الخ . ولا عجب فتموت
النساء على اختلاق الاخبار عظيمة .

لكن الحقيقة التي ليست مكتومة عن احد في القرية هي ان
 للشيخ سبع بنات. وانه لا يحب ان يسمع احداً يذكر امامه شيئاً عن بناته.
 وانه يغير الحديث كلما سألته احد عن الشيخة . وانه يطرق اذا التقى
 بامرأة تحمل على ذراعها طفلاً ذكراً . وانه يغص بريقه كلما قال له
 احد : « على قبال فرحة عريس . » وانه نذر نصف كرمه لمار
 الياس — عليه السلام — اذا جاءه صبي . واخيراً بان الشيخة حامل
 وستضع عما قريب .

*

عام ١٩٠٨ كعام ١٩٠٧ قبله هبط قرية عيرون تحت صغير
 الرياح وولولة الاودية . والان تنوح فوق بقاياها العاصفة وتستره
 اكفان الظلمة ، والسما تفرش فوق لحده بساطاً ابيض لتستقبل عليه
 عام ١٩٠٩ .

في القرية بعض انوار لا تزال تتألق من نوافذ البيوت وشقوق
 الابواب . هناك بعض شبان وصبيات اجتمعوا « ليحرقوا بناتهم »
 — بعضهم بالجوز وبعضهم باللوز وبعضهم بالفلوس — تسمع لهم بين
 الاونة والاخرى قهقهة تحملها الارياح وتدفعها في بطن الوادي .
 تقدم الليل واخذت الانوار تموت الواحد تلو الآخر ، كأن
 روح العام القديم ابت ان تنسل من وجه العام الجديد تحت ذرة من
 الثور وان تبدلته وصاياها بقرية عيرون على مسمع احد ما من اهل
 تلك القرية . ولم تلفظ السنة القديمة آخر انفاسها وتنبثق الجديدة

من جلياب الازلية حتى كانت القرية كلها بشيوخها وفتيانها واطفالها
وكلابها قد غرقت في بحر من النوم طويل . (نوما هينئاً يا عزيزتي
عبيرون !)

هناك ضوء منفرد شحيح لا يزال يلمع في احد البيوت كأنه
يحارب الموت — يهب وينطفئ . * أتلک ولولة العاصفة تضرب بنوافذ
ذاك البيت فتعود من هناك كأنه طويلة مؤلمة ؟ ام ذاك عواء كلب
تلمب به امواج الريح فتجعله يشابه الالانة ؟ ام هو صوت بشري خارج
من صدر يقطعه الالم ؟

العاصفة تنوح والسماء تبكي وبين تلك الضوضاء تسمع بين الالونة
والاخرى صرخات متقطعة تخرج من نوافذ ذاك البيت حيث الضوء .
تلک صرخات خارجة من صدر بشري . صرخات استغاثة :

« يا يسوع ! ... يا عذراء ! ... يا مار الياس ! ... »

هذا هو بيت الشيخ ابي ناصيف ، والمستغيث هو الشيخة التي
تتمخض اما بذلك او بانثى . لا احد حولها سوى القابلة — تجوز
تناهز السبعين يظهر انها قد انقست مهنتها والفنت كل ما يرافقها من
المشاهد والفصول . لم تخدش الايام جمال وجهها بسوى بعض خطوط
تتجمد وتتبسط فتشف عن افعالاتها النفسانية . لا بد من انها
الان في ارتباك عظيم لان هاته الخطوط تتجمد اكثر مما تتبسط . هي
تدرك ان العام الجديد قد ابتدأ وانه اذا ولد للشيخ صبي عن يدها
هذه المرة فربما لا تخرج من بيته باقل من « ذهب انكليز » وفسطان

وربما تحظى ببابوح جديد . هي تنتظر هذه الفرصة من زمان وربما صلت لمار الياس ومار جرجس لاجلها اكثر مما صلى الشيخ والشيخة معاً . وهي تفضل الموت على ان تبشر ابا ناصيف للمرة السادسة بعروس بدلاً من عريس ، وان تراه يقطب حاجبيه ويزبد ويلبظ الارض ويناولها زهراويا فقط . نعم الموت اولى .

اما الشيخ ابو ناصيف فهو في الغرفة المجاورة يتمشى ذهابا وايابا بخطوات كبيرة ورأس قد انحنى تحت ضغط افكار تكاثفت حتى صارت في عينيه اشخاصا حية ملأت فضاء الغرفة ولم تبقى له مجالاً للحركة . اصوات ترن في اذنيه ، واشباح تمر امام عينيه . اتون في رأسه ، وزوبعة في نفسه . وتلك العاصفة — الجنية ، التي تصرخ وتغول وترقص حول البيت فترقص معها التوافذ والابواب ، ماذا تطلب منه وبماذا تبشره ؟ بعريس ام بعروس ؟

الاشباح تبرم معه وتدور حوله كراقصات في عرس او كنائحات في جنازة . وقد سدت في وجهه المسالك وقيدت خطواته فانتصب في وسط الغرفة كصنم تجهزت حوله الوف من العابدين تتألب جيوشهم كأمواج يم تفجرت تحته بركانات . وهذه الأمواج تركض نحوه من كل جانب .

ها قد غمرته الى صدره فاحس كأن صنين اناخ عليه بقممه وتلاله . ها قد طوقت عنقه وضغطت عليه بكل قواها : « بنت ؟ ... » ضاقت انفاسه . ثقل رأسه . اظلم النور في عينيه . هو يغرق .

— « يا يسوع ! » —

خر ابو ناصيف على ركبتيه ورفع يديه وعينيه الى صورة على الحائط تمثل رجلا مصلوبا . ركبت الامواج ورجع صنين الى مكانه وكفت الراقصات والنائحات . ماتت العاصفة واختفت الاشباح والارواح . ابو ناصيف وحده في الغرفة محقق بصورة المصلوب والصين عن جانبيه . غاب اللسان عن بصره فهو لا يرى سوى المصلوب في الوسط والدم يسيل من جنبه ويديه ورجليه المسمرة . اختلطت الالوان والخطوط في عينيه فهو لا يرى رأس المصلوب وقد انحنى تحت اكليل الشوك ولا يديه ولا رجليه ولا الصليب ، بل نقطة الدم الخارجة من جنبه . الصورة كلها تحولت في عينيه الى بركة من الدم . ها وجه البركة يتجمد ومن الدم يخرج رأس صغير ازغب فيدان فصدر قبطن فرجلان . الصورة تتحرك وتتململ . تلك ليست صورة ثلاثة مصلوبين بل صورة طفل ذكر . ها الطفل يمد يديه الصغيرتين نحو ابى ناصيف . ها هو ينزل عن الحائط ويتدرج نحوه . هو ليس طفلاً بل شاب في اول العمر . ابو ناصيف يفتح له ذراعيه . ويضمه الى صدره ويقبله بحرارة لم يقبل بها بعد مخلوق مخلوقاً . نعم . هذا هو ناصيف . هذا هو اول وآخر آماله . هذا حلم حياته وعكاز شيخوخته ووريث ثروته ومحيي شرف عائلته . نعم . اسم بيت الناقوس لن يمحى عن وجه الارض . وختم المشيخة لن يتسع في يد غريبة . والمختار لن يقرأ ابانا ونومن في

الكنيسة . والمطران عند زيارته قرية عيرون لن ينزل في دار غير
دار بيت الناقوس . وجاره الياس الخندقوق لن يفتخر عليه بصبيان
الخمسة .

وام ناصيف ! آه . هو سيقبل رجلها كل صباح ومساء ويستغفر
منها ألف مرة في النهار عن سيئاته السابقة نحوها وسيقسم لها بحياة
فاصيف انه لن يمس شعرة من جسمها بغضب وبغض . وسيخدمها
بماء عينيه ودم قلبه وسيجعلها زينة البلدة .

اليوم رأس السنة وعند الفجر سينتشر الخبر عن ولادة صبي
للشيخ . ستأتي القرية بشيوخها واطفالها لتشاركه بالفرح . اهلا بهم
قابو ناصيف سيدع الحمر تجري انهاراً والذبايح تدوم اسبوعاً او
شهرآ .

واذا كان المولود بنتاً ؟

مر هذا الفكر كسحابة سوداء في العرقة فارتجف ابو ناصيف
بكل اعضائه واطلمت عيناه .

« يا ... مار ... الياس ! ... »

عاد الثور الى قلب ابي ناصيف وامتشعت الغمامة عن عينيه فظهر
ناصيف ثانية في حضرة والده . لا . لا . فار الياس سيجيب هذه
المرة نداء قلب كبير . مار الياس الذي يعتبره ابو ناصيف اكثر من
كل القديسين فلا يحلف الا باسمه ولا يصلي الا في كنيسته ولا يمر
عليه احد او عيد الا يضع مثليكا في صينيته . مار الياس الذي قدم له

ابو ناصيف شمعداناً من الفضة وايقونة مذهبة • نعم • مار الياس
يعرف ان الشيخ يستحق ولداً ذكراً أكثر من كل رجل في القرية
وعلاوة على ذلك فابو ناصيف مستعد ان يقف له نصف كرمه اذا
اجاب طلبته • مار الياس لا ينكر الجميل •

« يا .. عذ .. را .. ! »

عادت القشعريرة الى جسم ابي ناصيف والحلاء الى قلبه والظلمة
الى عينيه • احتجب عنه ناصيف وحلت مكانه صورة شيطانية —
صورة طفلة تتمامل في المهد • تلك الصورة المعلقة على الحائط والتي
تمثل امرأة حاملة طفلاً على ذراعها بدأت تتحرك وترتجس • ها قد
انحدرت المرأة وطفلها الى الارض • هي تنظر اليه بخنو وتقرب منه
وقد تحركت شفاتها كأنها تريد ان تخاطبه • الطفل على يدها ليس
حبيباً بل بنت • ماذا تريد منه هذه المرأة وماذا تشاء ان تقول له ؟
ابو ناصيف يتميز غيظاً منها ويده ترتفع ليفتك بها • لكنها تبسم
وقد فتحت فاهها وتلك الابتسامة تزيد في غيظ ابي ناصيف ناراً •
هو يجمع آخر قواه ليمسك عن ضربها • تكلمي ! تكلمي !

« بنت ! بنت ! بنت ! ... »

امتلائت الغرفة فجأة بهذه الكلمات فاحس ابو ناصيف كأنها
انياب تنشب فيه كيفما انقلب • « بنت ! بنت ! بنت ! »

خسئت يا خائنة ! بل صبي ! صبي ! صبي ! — هب ابو ناصيف
من سجده كملسوع واندفع الى صورة المرأة على الحائط فأخذها

ومزقها تنقاً وطرح بها الى الارض وداسها برجليه مردداً: « صبي !
صبي ! صبي ! »

عاد ابو ناصيف يتمشى بخطوات اوسع من الاولى ورأس اثقل
من جبل صنين ، وعادت العاصفة تتابع جنازتها حول البيت فيخيل
اليه انها تجز آماله وتردد « بنت ! بنت ! بنت ! »
وع . وع . وع !

انقبض قلب ابي ناصيف فجمد في مكانه كمن اصيب بمس .
احب ان يخطو فلم تطاوعه رجلاه وان يرسم الصليب على وجهه
فخاته يده .

صبي ام بنت ؟ ينتظر الى ان تأتي القابلة فتبشره بولادة ناصيف
ام يذهب هو ليستقبل وريشه وقره عينه ؟
واذا كان بنتاً ؟ — « اختها ! »

برق جهنمي لمع في عيني ابي ناصيف وقوة شيطانية دفعته من
مكانه الى الغرفة المجاورة حيث الوالدة والقابلة .

« ماذا ؟ » — لسانه لم يطاوعه ليلفظ أكثر من هذه الكلمة .
قطعت الام نجاتها وحبت القابلة انفاسها وكأن الطفل شار كها
بذلك فلم ينطق سوى مرة واحدة « وع » .

« ماذا ؟ » — اعاد الشيخ سؤاله بعد لحظة ظهرت له اطول من
دهر . سكينه اعمق من سكينه القبور عادت فسادت في جوانب
الغرفة فكاد الشيخ يأكل لحمه غضباً .

تخبركم سرّاً عن لسان القابلة التي لم تبج بهذا السر لسواها ان المولود كان بنتاً وان الشيخ اعطى القابلة « ذهبين انكليز » كي تذيب ان المولود كان صبياً جهيضاً . وان الشيخ بقي يضرب الشيخة حتى اختل صوابها فهو لا يدعها الان تخرج من البيت . وانه — اعني الشيخ — من ذاك الوقت لم يطأ ارض كنيسة مار الياس ، وان البعض يقولون انه ربما غير دينه وهجر عيرون الى الابد .

نعم . قرية عيرون من اعمال لبنان مشهورة بامور كثيرة !

« ١٩١٤ »

جود من قهوة اما مشرة

لقد ضمت



سماحة

العاقرة

« يكلل عبد الله » عزيز » على عبدة الله « جميلة » بسم الاب
والابن والروح القدس !

لما فاه الخوري بولس بهذه الكلمات مساء العاشر من ايار سنة
١٩٠٠ في قاعة فسيحة ، غنية بالرياش والزخرفة ، من دار ابي عزيز
الكرباچ ، هبطت على مئات من المدعوين الى العرس سكيمة خرساء
تجللها هيبة سماوية . فالاطفال والاحداث ، والعذارى والفتيان ،
والكهول والشيوخ ، كلهم حبسوا انفسهم كأنهم يصغون الى رفرقة
اجنحة خفية . والخوري بولس نفسه ، الذي ربط في حياته بوثاق
الزيجة نحو الالف من ابناء قطيعه المحفوظ من الرب ، لفظ هذه
الكلمات تلك الليلة بصوت غير صوته العادي حتى خيل لسامعيه ان
الروح القدس كان يتكلم بلسانه . وبما كان ذاك لان الخوري بولس
في كل حياته الطويلة التي قضاها خادما للرب ادرك لأول مرة اهمية
كلماته ، وتمورت روحه فرأى الزيجة كسر مقدس الهي لا كطقس
كنائسي بسيط ، او ربما كان ان الخوري ، من يوم اقتبل شرف
الكهنوت حتى تلك الدقيقة ، لم يرفع يده ليبارك رباط عروسين

كعزير الكرباج وجميلة البشتاوي ، لكن الحضور شعروا فجأة انهم
 في حضرة قوة علوية ، وتحولت القاعة في اعينهم ، مع كل ما فيها
 من انوار الشموع الملتوية ، الراقصة ، المتصبية نحو العلاء ، الى هيكل
 طاهر يتم فيه سر مقدس عميق . لذلك توشحوا بالسكوت والورع .
 لا شك في ان منظر العروسين كان مما زاد المشهد هيبة وجلالا .
 فعزير الكرباج ، وحيد ابنيه وامه ، كان اجمل شاب في كل البلدة
 وجوارها ، بل في كل لبنان اذا صدقنا ما قاله عنه الكثيرون ان
 « الله خلقه ورفع يده » . طويل القامة ، ممتلىء الجسم ، ابيض البشرة
 مستدير الوجه ، يسقي بياضه دم الشباب . في عينيه تضحك الحياة
 وفي شاربيه الصغيرين تتجلى قوة الاعتماد على النفس والثقة بالذات
 والفخر بما فعله وسيفعله بعد في هذا العالم . هجر والديه لما كان له
 من العمر ١٨ سنة . جاء اميركا فافلح في التجارة وجمع من الثروة
 نحو الف ليرة في مدة قصيرة . ووجد في اثناء ذلك وقتاً ليصرفه على
 تثقيف ذاته ، فدرس وتعلم وحصل ما لا يحصيه الوف من المهاجرين
 اللبنانيين والسوريين في عشرات من السنين . ثم لبى دعوة والديه
 فعاد الى لبنان وبنى داراً فخمة — احسن دار في كل البلدة — وفتح
 تجارة جديدة . كل ذلك وهو لم يتخط الخامسة والعشرين من سنه .
 وكان اهل البلدة يتحدثون باجتهاده وعقله ولينه ودماثة اخلاقه . فهو
 لا يشتم ولا يلعن . لا يسب الدين ، لا يسكر ، لا يلعب بالقمار ولا
 يدخن . يدعو كل شيخ في البلدة « جدي » وكل عجوز « ستي »

وكل كهل «عمي» او «خالي» و كل كهلة «عمتي» او «خالتي» و كل شاب «اخي» و كل فتاة «اختي» . يحبي الطفل ويحبي الشيخ قبل ان يبادراه بالتحية ، ويرفع قبعته عن رأسه باعتبار واجلال عندما يحبي النساء .

وكم من الشبان الحاضرين حسدوا عزيز الكبراج في اعماق قلوبهم وتمنوا لو كانوا في ثيابه تلك الليلة! والبعض ينقلون عن لسان الخوري بولس ان هذا الشيخ الجليل المحترم اعترف بانه في خمسين سنة قضاه في خدمة الكنيسة لم يشته مرة واحدة ان يبدل حله الكهنوتية بكل ثروة العالم ، لكنه لما امر العروسين — عزيز الكبراج وجميله البشتاوي — ان يتبادلا قبلة المحبة تمنى في تلك الدقيقة لو كان في ثياب العريس !

اما جميلة البشتاوي ، فعدا جمالها الساحر ، كانت تحوي على صفات قلما اجتمعت في فتاة في كل ذاك الجوار او سواء . اذا دار عنها الحديث في اي مجلس كان — سواء مجلس نساء ام رجال ، او مجلس رجال ونساء معاً — فاول ما تتناوله اللسان حسننها الرائع ، ثم ينتقل المتحدثون الى طباعها وعلمها وثروتها . يقول واحد انها ملاك — الارض لا تشعر بها — فيزيد الاخر انها «عالمة» ويعني انها انته مدرسة داخلية للبنات «واخذت الشهادة .»

ويتابع الثالث فيقول انها وحيدة وان اباهما قد ترك لها بعد وفاته ارزاقا واسعة و«صندوقا» من المال . ويضيف الرابع انها اشترت كل

ارزاق عمها لانها ورشته الوحيدة • لذلك فلا عجب اذا ظل زفافها الى عزيز الكرباج موضوع جلسات الرجال والنساء في البلدة مدة اسبوع على الاقل •

*

مضت الاشهر الاولى من حياة جميلة الزوجية كيوم من ايام الربيع لم تر سماءه غيمة على الاطلاق ، وهوawe واشجاره وازهاره واعشابه وانهاره ودباباته وحشرات كها ثملى بخمرة الحياة ولذة التجدد كأنها في مهرجان عظيم ، وجميلة كانت في بيتها الجديد بين حميا ابي عزيز وحماتها ام عزيز وشريك حياتها عزيز — محور حياتهم اليومية ، حولها تدور افكارهم وبها تناط آمالهم لاجلها يتعبون ولاجلها يعيشون اذا ضحكت ضحكوا ، وان عبست عبسوا كأنها ينبوع حياتهم ومصدر كل افراحهم واتراحهم •

لما انتهت مدة التهانى بعد العرس اقترحت ام عزيز على ابنها ان يأخذ زوجته الى بيروت او الشام « تغييراً للهواء » ، فصادف هذا الاقتراح استحسان الجميع وزار الزوجان الشام وزحلة وبيروت ، ولما رجعا هرعت ام عزيز الى جميلة تعانقها وتقبلها وتضمها الى صدرها صارخة بلهفة : « حبيبي • اطلت الغيبة ! حبيبي ، احترق قلبي بلاك ! » ثم ألقت نظرة على يدي كنتها قرأت بعض خواتم جديدة على اصابعها وسوارات ذهبية على معصمها وساعة جديدة معلقة بسلسلة ثمينة على صدرها فكادت تطير فرحاً •

اما عزيز فكان حبه لزوجته في خلال الاشهر الاولى يتجدد كل يوم . فكل يوم كان عنده عرساً . عندما يذهب صباحا الى مخزنه يتزود قبلة منها ، واذ يعود عند المساء يجدها بانتظاره في الباب فيأخذها بين ذراعيه ويضمها الى صدره منحنيًا فوق وجهها ثم يسألها مقبلاً شفتيها الورديتين : « كيف حال قرقوري اليوم ؟ » فتجيبه والسعادة تضيء في عينيها منعكسة في كل عضلة من عضلات وجهها : « كيف حال قرقوري اليوم ؟ »

« القرقورة » و « القرقور » اصبحا في قاموس حياتها اليومية اسمي علم حلا محل « جميلة » و « عزيز » . واحبت جميلة اسمها الجديد حتى كادت تنسى اسمها الاصلي . وكذلك عزيز . وكلاهما كان يكره الزائرين ليس لسبب مادي او تقاعداً عن القيام بواجبات الضيافة السورية بل لان الزائرين كانوا يأخذون قسماً من وقتها الثمين الذي كانا يرغبان ان يصرفاه معاً . وبالاخص لانهما في حضرة الغرباء كانا يضطران ان يرجعا الى « عزيز » و « جميلة » بدلا من القرقور والقرقورة .

جميلة كانت تكره الزائرين لسبب آخر لم تطلع زوجها عليه . وذاك لان كل زائر كان يعد من واجبات اللياقة واللطف ان يقول لها كلما قدمت له لفاقة من التبغ او فتجاناً من القهوة او نارجيلة او نحو ذلك : « ان شاء الله ففرح لك بعريس » فكانت هذه الطلبات والتمنيات الدائمة كقطرات سم في كأس سعادتها الطافحة . حب

عزيز وقرب عزيز وقبلات عزيز هذه هي سعادتها وكمال حياتها ،
فلماذا كل هذه التمنيات كأن حياتها ليست كاملة بدون « عريس ؟ »
مرة ، بعد ما انصرف الضيوف واختلت مع جميل في مخدعها
تقدمت اليه بلطف واخذت طرف شاربه الايسر بيدها اليمنى لتقبله
ثم قالت :

— اسمع يا قرقور ! الا تتضجر من كثرة تمنيات هؤلاء الناس
البلداء « من فرحة عريس » يرمونك بها اينما صادفوك ، وفي كل
الاحوال ، ومهما كان موضوع الحديث ؟ قد بدأت انفر منها حتى
صرت اكره معاشره الناس لاجلها !

طرحت هذا السؤال على زوجها وهي متأكدة انه سيجيبها بانه
يكره تلك التمنيات مثلها او اكثر . وانه يتحملها لان لا سلطة له
فوق الغير ليلجم السنهم . وشد ما كان عجبها لما سمعت جوابه :

— هل نشتم الناس « يا قرقورة » اذا كانوا يتمنون لنا السعادة ؟
ان هذا الجواب اكد لجميلة ان متابعة الحديث في هذا الباب
ربما كشفت لها السر عن اول تناقض في الافكار والاعتقادات بينها
وبين عزيز . وهي كانت تثق بكل وجودها ، حتى تلك الدقيقه ،
ان حياتها مع عزيز ستدوم كما كانت الى تلك الليلة ، ربيعاً دائماً لا
يمكرها اقل اختلاف في الميول والاذواق والاراء والاعتقادات .
لذلك كانت تخاف ان تجد ولو نقطة صغيرة لا يتفق فيها ذوقها مع
ذوق زوجها .

لما عمّ عزيز ان يشتري لها حلالها في بيروت تمنعت كل التمتع
لأنها — كما قالت حينئذ — لم تشأ ان تكون « حمارة مشنلة
بالذهب » ولأنها تعدّ التحلي بالذهب والماس عاراً على امرأة لها من
جمالها واطباعها وحب زوجها ما يكفيها حلية مدى حياتها . لكن
عزيزاً أصر على عزمه وانسكتها بقوله ان حجبها هي « حجة الفقراء »
وان الافضل ان تلبس لكل حالة لبوسها ، وان مقامها في الهيئة
الاجتماعية يحتم عليها ان تلبس حلي ذهبية وماسية فاذنعت لارادته لا
لأنها اقتنعت بقوة برهانه ، بل لأنها قررت في عقلها ان سعادة
ازوجين تطلب اتفاقاً تاماً في الازواق ، ولاجل تلك السعادة اخضعت
ذوقها لذوق زوجها . ولذلك خشيت الان من متابعة الحديث خوفاً
من ان تصل الى حيث لا تشتهي . لكن طبيعتها النسائية ، تلك
الطبيعة نفسها التي حملت جدتها حواء على الاكل من الثمرة المحرمة ،
دفعتها الان الى متابعة الحديث الذي فتحتة فجأة وما كانت تظنه على
شيء من الاهمية :

— أو لسنا سعيدين بلا « عريس » ؟ وهل سعادتنا لا تكمل
بغير اولاد ؟

قالت ذلك وطرف شارب زوجها لا يزال بين اصابعها تلعب
به وعيناها محذقتان بعينيه كأنها تقرأ فيهما ما احدث سؤاها في
قلبه .

— لماذا هذه السؤالات يا قرقورة ؟... ولكن لو رزقنا الله

« عريساً » ، كما يتمنى لنا هؤلاء القوم الذين تتضجرين منهم ، أفلا تكمل سعادتنا ويتضاعف حبنا ؟

لم تسمع جميلة هذا الجواب حتى ارتخت اصابع يدها اليمنى فسقط من بينها شارب زوجها وحولت نظرها الى الارض . اذن سعادة عزيز بجمها ليست كاملة . اذن حبه لها لم يبلغ حده بعس ولا يزال قابلاً للزيادة والتضاعف . ولماذا قد امتد حبها له واتسع حتى غمر كل حياتها كموجة جارفة فأصبح عزيز في حياتها السكل بالكل ؟ لماذا لا تطلب زيادة سعادة ولا تسأل من ربها الا ان يبق لها ما تملكه الان ؟ هي لا تبغض البنين ، كلا بل تشتهي من كل قلبها ان تصبح امماً . لكن هذه الشهوة — سواء تحققت ام لم تتحقق — لا تزيد ولا تقلل من سعادتها ما دام حب عزيز يدفعها ويدور مع دم قلبها الى كل اعضاء جسمها . فلماذا يتكلم عزيز عن « كمال السعادة » و « تضاعف الحب » ؟ .. دارت هذه الافكار في رأس جميلة باقل من طرفة عين ، فوجدت نفسها مدفوعة الى ان تسر غور زوجها الى النهاية . فمادت ورفعت عينيها الى وجهه محاولة ان تعيد اليهما كل اللطف والحنو والاستسلام التي كانت فيهما قبلاً ، وقالت آخذة بيد زوجها اليمنى :

— اعدرنى يا قرقور على هذه الاسئلة البليدة ولكن ... ولكن لنفرض ...

قالت ذلك ووقفت كأنها خافت ان تفوه ببقية الكلمات التي

كانت تدور على طرف لسانها .

— لنفرض ماذا ؟

— لنفرض ... لنفرض ان الله لم يرزقنا ... ان الله بخل علينا
« بعريس » او « بعروس » ... فهل ... فهل يضعف حبك نحوي
حينئذ وهل تعد سعادتك ناقصة ؟

— لله ما اكثرت أسئلتك الليلة ! قلت لك انه اذا من الله علينا
« بعريس » تكمل سعادتنا ويتضاعف حبنا . واذا ... واذا لم يشأ الله
ان يهبنا ذرية ... (هنا بلغ عزيز بريقه كأن قد اصابته غصة)
واذا لم يشأ الله ان يهبنا ذرية ... ف ... فماذا نقدر ان نفعل ؟
لا يبقى لنا الا ان نخضع لارادته ، دعينا من هذا الحديث فهو بلا
جدوى وتعالى لتنام !

اخذ عزيز بيد زوجته وامالها الى صدره ، ولاول مرة بعد
اكليهما قبلها ولم يشعر بحرارة تسرب من جسمها الى جسمه ، ولا
احس بدقات قلبها على صدره وبرودة انفاسها على وجهه .

※

اما ام عزيز فلم يبق لها غاية في الدنيا سوى الملاحظة والسهر على
راحة كبتها . وذلك ، في عرفها ، ينحصر في ان لا تدع جميلة تقوم
بشيء من اشغال البيت ، لذلك لما تقيمت ذات يوم عن البيت نحو
ساعة او ساعتين ورجعت فوجدت كبتها في ساحة الدار والمكنسة
في يدها كادت تعيب عن صوابها : « ويحي . ويحي . ليتني ما كنت .

لينني تحت التراب ! أمثلك نكنس ؟ يدان كيديك لا يليق بهما الا
الذهب والاطالس والحرير . هاتي . هاتي . هاتي وروحي فتشي لك
عن كتاب تقرأينه ! »

عشاً حاولت جميلة ان تبرهن لحاتها ان لا تنيب في شغل البيت ،
وانها لا تتعب من التكنيس ، وانها قد ضجرت من الجلوس والقراءة
ولذلك تطلب حركة جسدية . تلك البراهين قد تقنع ابا عزيز ،
لكن ام عزيز قد شربت من ينبوع فلسفة غير تلك الفلسفة . وفلسفتها
ان « بنات الاكابر » لا يجب ان يعملن عملاً على الاطلاق
سوى الاكل والشرب والتسائق في اللباس . والا فماذا يقول
عنهن العالم ؟

لما رجع عزيز تلك الليلة واستقبلته جميلة حسب عادتها هرولت
نحوه امه واخذت تشكو له بصوت ربهه مزاح وثلاثة ارباعه جد
ما رآته من « القرقورة » في ذلك النهار من محاولتها ان تنظف
البيت . فوافق عزيز امه على كل ما قالت من ان الكناسة ومسح
الغبار وغسل الصحون وما شابه لبس « من خرج بنات الاوادم » واخذ
عهداً للبحال على جميلة . — قسراً عن ارادتها — ان لا تعود لمثل
تلك الاشغال .

وفي اليوم الثاني ذهب واستأجر خادمة اجابة للاحاح امه وطبقاً
لرأيه الخاس . ولكي يكون لجميلة ما تقضي به ساعات فراغها
الطويلة كان يأتيها من مدة الى مدة برواية او مجلة او جريدة وجميلة

كانت تطالع كل رواية يأتيها بها زوجها • لكنها لم تكتف بالمطالعة بل كانت تشعر ان قوى الشباب فيها تطلب شغلا جسدياً مع الشغل العقلي فتأسف ان ترى ذاتها محرومة من تلك اللذة ارضاء لحاظر زوجها وامه وابيه •

لكن هذا الفراغ في حياتها لم يكن ليقلق راحتها العقلية والنفسانية لولا انه اخذ يتسع مع الايام حتى لم تعد قادرة ان لا تراه ، لا سيما لما بدأت تشعر ببرودة من زوجها في علاقتها معه •

مر عام وتلاه الثاني بعد زواجهما ، وكل يوم جديد كان يؤكده الجميلة ان هاوية فغرت فاها بينها وبين عزيز • هو لم يزل يناديها « قرقورة » وهي لا تزال تساديه « قرقور » وتستقبله كل مساء في الباب او عند اسفل الدرج خارجاً • لكن ذاك الخنو في صوته وتلك اللفظة في عينيه تبخرتا كدموع الندى عن وجنات الازهار بعد طلوع الشمس ولم يبق من اثر لتلك الابتسامة اللطيفة ، ابتسامة العاشق ، على وجهه الجميل • ووجهه لم يعد كالسابق مرآة مصقولة تشف عن كل حركات روحه وقلبه بل اصبح الان وجه بحر رائق تمثل الحياة تتمته مشاهد خفية لا تراها العين ولا تسمعها الاذن • وذاك النور الالهي في عينيه الذي كان يملأ قلبها بالذ الخان السعادة والحب قد انطفأ الان وحل محله فكر اسود عميق تهب منه نسيمات باردة على روح جميلة التي كانت لا تزال تعشق بكل قواها •

ان هذا الانقلاب الغريب لم يأت فجأة بل بالتدريج • وجميلة

بدأت تلاحظه بعد مرور السنة الاولى لاقتراניהما . والان تراه يزداد يوماً عن يوم ، قلبها يتوجع وهي لا تظهر الوجع على وجهها خوفاً ان تبخر من روحها آخر قطرة من السعادة التي لا تزال تطلبها نفسها وكل وجدانها . يخيل اليها احياناً ان ما طرأ على حياتهما ليس سوى غمامة مرت بسماء سعادتهما وستتقشع عن قريب . لا سيما عندما تسأل نفسها عن اسباب التغير الذي حدث في علاقات زوجها معها فلا تجددها . وهي لا تزال تحبه كالسابق ان لم يكن اكثر . شقتها لا تزالان تشتاقان شفتيه وصدورها صدره . هي لا تزال تنتظر رجوعه كل مساء بفروغ صبر وتقف في الباب وعيناها محدقتان في جهة واحدة ، الجهة التي سيأتي منها . وبالاختصار فعزير لا يزال « قرقورها » فماذا طرأ على عزير ؟

بقي هذا السؤال يعذب جميلة نهائياً بعد نهار وليلاً بعد ليس الى ان سمعت مرة مصادفة هذه المحاورة الوجيهة بين حماتها وعزير :

— يا ابني . الى متى الصبر ؟ انظر الى امرأتك ودبرها !

— وكيف ادبرها ؟ هل انا رب لا خلق اولاداً ؟

— ويلاه . اهكذا يفعل الناس ؟ خذها الى بيروت . خذها الى الشام ام دعني انا ادبرها . اهكذا ينقطع نسلنا ونحن مكتفون الايدي ؟

— بالله يا امي اتركيني بحالي . فسا بقلبي يكفيني . اعلمي ما

بدا لك ! ..

هذا الحديث القصير بين ام عزيز وعزيز فسر لجميلة كل ما كانت
 تتوق نفسها المثالية الى معرفته من زمان لكن معرفتها السر لم
 تخفف من آلامها بل زادت قلبها انقباضاً ونفسها اوجاعاً وما العمل؟
 هي تحب عزيزاً ولا تتأخر لحظة ان تموت لاجله ، وليس في العالم ما
 يشق عليها ان تضحيه لاجل ارجاع حبه اليها . لكن عزيزاً يطلب
 ممن حبه ما ليس في وسعها ولا في وسع العالم كله تقديمه . فهو يطلب
 منها اولاداً ، وما ذنبها اذا كانت عاقراً ؟ هي لم تعد تبالي بالالام
 النفسانية التي يسببها ادراكها ان ما كانت تخشاه قد اصبحت الان
 حقيقة لا تدحض ، وذلك ان سعادة عزيز معها لم تكن تامة بدون
 « عريس » وان حب عزيز لها كان حباً جزئياً لا كاملاً . كل افكارها
 تحولت الى تقصص واحدة وهي : هل من سبيل الى تجديد نار الحب
 في قلب عزيز ؟ . السبيل الوحيد ولادة البنين . وحمايتها نوهت عن
 بيروت والشام . فلماذا ترى كانت تعني بذلك ؟ هل في بيروت او
 الشام اطباء يقدرّون ان يجعلوا العاقر تحمل وتلد ؟ حمايتها وعدت
 ان تأخذ هذا الامر على عاتقها . وهي امرأة محمكة محزنة ، أفليس
 الافضل ان تعمل بكل ما تقوله حمايتها ؟ لكنها لم تسيء الى احد في
 هذا العالم ، فلماذا اساء اليها العالم ؟ حبها لعزيز لم تزد الايام الا نارا
 فلماذا خمدت نار حب عزيز نحوها ؟ هي راضية به بدون اولاد ،
 فلماذا لا يرضى هو كذلك بها ؟ أليس هو السيء اليها ، فلماذا تسعى
 لتكفر عن اساءته ؟ اليس الافضل ان تجازيه بالمثل وتقبله على البرودة

بالبرودة ؟ اليس الافضل ان تنتهر قلبها ليستكن وتغطيء بالدموع
لواعيج حبها وآلامها ؟ لكن ، ربما ! .. ربما كان في وعد حمايتها
بعض الامل . فلماذا لا تتبع بارقة ذاك الامل ؟

بقيت جميلة مدة تتردد بين الشك والعزم . دموعها تهم بالانهار
فتحبسها . وقلبها يكاد ينفجر في صدرها كقنبلة رشاشة ، فنقول له :
« على مهلك يا قلب ! .. »

*

أصرت ام عزيز على رأيها هذه المرة وفازت . وعزيز لم يعارضها
وتمنعات جميلة لم تكن لتقف في طريقها . وهكذا امرت كتبها
يوما من الايام ان تعد كل لوازم السفر ، وفي الغد « تزلت » معها الى
بيروت بعد ان اعلنت للجيران انها ذاهبة « لتشمم كتبها الهوا » لان
كتبها « واولداه محصورة . »

وبعد غيبة اسبوع عادت الاثنتان من سياحتها ، وعادت جميلة
تراقب موت حبها التدريجي شاعرة انها تموت معه موتاً بطيئاً ، موتاً
روحياً .

ان بيروت لم تخفف آلامها الجسدية والنفسانية . ومعاملة عزيز
لها كانت تزداد خشونة لاسيما بعد ان مر عام على زيارتها لبيروت .
واذا كان عزيز قبل تلك الزيارة يقبلها قبلات ناشقة ويدعوها قرقورتي
ولو نادراً فالان لم يعد يقبلها على الاطلاق ، وعاد يدعوها « جميلة » ،
وقلما يناديها حتى باسمها . وتعلم فجأة تدخين النارجيلة فصار عندما

يعود الى البيت يجلس مسائه مع نازجيتسه بدلا من « قرقورته » لا يحدث احداً ولا يجسر احد ان يحدثه الا اذا جاء ضيوف فيقابلهم بلطفه العادي كأن لم يطرأ عليه تغير البتة . وعند الساعة التاسعة تقريباً يذهب الى غرفة منامه ويقفل الباب وراءه .

اخذت جميلة تذوب كالشمعة . ولم يكن لها احد في العالم كله تكشف امامه روحها سوى امها . ولكن ، ماذا تفهم امها ؟ اذا حدثتها عن المأساة التي كانت تمثلها الايام في قلبها تنهد وتبكي ولا تفهم ماذا تقوله ابنتها .

امها كأم عزيز تنظر الى عقر ابنتها نظرها الى قصاص صارم من السماء ، الى فادحة عظيمة ، الى عيب كبير لا يمحي بين الناس . تنظر الى قريبات جميلة فتراهن يغذين بائديتهن صبياناً وبنات فتحققن الغصة اذ تفكر ان ابنتها التي كانت « زينة » بنات البسلة ، ابنتها التي تحدث الغريب والقريب بحماها وآدابها ، ابنتها التي تقاطر لطلب يدها الشبان من كل جهات لبنان ، تمشي الان ولا لبن في ثديها ولا طفل على ذراعها . لذلك بدلا من ان تجد جميلة تعزية عند امها كانت تضطر ان تعزيتها .

لم تكثف ام عزيز بسياحتها الى بيروت بل اجرت كسبتها ، بعد مرور عام ، ان ترافقتها الى الشام ، واعلنت هذه المرة كذلك انها ذاهبة « لتشم كسبتها الهواء » لان كسبتها « واولداه محصورة » . لكن اطباء الشام واطباء رحلة لم يفعلوا ما قصر عن فعله اطباء بيروت .

حينئذ لعنت ام عزيز في قلبها الطب والاطباء وعولت ان تستعين
«بالمغاربة» . فصارت لا تسع عن مغربي زار البلدة الا دعته الى بيتها
وشرحت له حكاية كنتها ، حتى تحول بيت الكرياج الى نزل
يؤمه كل من رفع صوته في تلك البلدة ونادى : «حكيم ، طبيب ،
دوا للحبة ، دوا للعين ! » ولم يطل ان تحققت ام عزيز ان حذاقة
المغاربة كذلك لم تجدها نفعاً . فما العمل ؟

بقي باب لم تطرقه ام عزيز وقد تركته آخر وسيلة تلجأ اليها
اذا ضاقت بها كل الوسائل . ذاك زيارة الاديرة ، «عليها السلام» .
فراحت تتنقل بكنتها من دير الى دير ... وجميلة في يدها كآلة
خرساء تدبرها كيفما شاءت .

في بدء الامر كانت جميلة تمنع عن هذه الزيارات ، لكنّها
تحققت بالامتحان ان لا نفع من تمنعها ولذلك استسلمت لارادة حمايتها
وقد فقدت ارادتها تماما مع فقد حب زوجها . فالحياة اصبحت عبئاً
ثقيلاً عليها لم تكن تجد واسطة للتخلص منه .

مضى على زواجها نحو عشرة اعوام فدركت ان السعادة التي
سكرت بها في الاشهر الاولى قد ذهبت ولا امل برجوعها . عزيز
يكاد لا يكلمها على الاطلاق ، حتى ولا ينظر اليها . يقضي اكثر
لياليه في السوق ويرجع بين المرة والاخرى احمر العينين مع ازرقاق
تحتها . تتصاعد من فمه روائح العرق والنبذ والجمعة ، اسنانها اكتست
بغطاء اصفر كثيف . لون وجهه انقاب من الوردي الى الرمادي .

طرفا شاربيه هبطا الى اسفل . لحيته لا ترى موسى احيانا في اسبوع .
وعندما يرجع الى البيت يتحول البيت الى مقبرة لا حركة ولا
حياة فيها . لا يجسر احد ان يلبس بينت شقة . واذا حدث وقال او
فعل احد ما ليس على خاطره . سواء كان ذاك اباة او امه — يبدأ
بشتائم الدين وتكسير كل ما تصل اليه يده من فرش وانية . ومرة
ضرب زوجته لانها رفضت ان تذهب الى الكنيسة وتلبس كل
مجوهراتها .

كانت جميلة تراقب كل ذلك وقلبها يتفطر . وابو عزيز وام عزيز
ينظران اليها كأنها سبب تعاسة وحيدهما ، لذلك أبغضاهما . وكم
سمعتهم يتحدثان هكذا :

— ولدي ، تقول ام عزيز ، لقد ذاب من قهره . لا الله يطعمها
ولا عزرائيل يقذفها عنه . لو ماتت لتزوج من بنت حلال سواها
تأتيه بولد يعزي آخرتنا وآخرته !

فذاك الحنو الذي كانت تلاقيه جميلة من حماها لم يبق له من اثر :
اذا رأتها الان تكس وتغسل وتطبخ لا تصيح كالسابق : ويلي ، ويلي !
ليتك تقبرين حماك ان شاء الله !

الخادمة التي كانت استأجرتها لخدمة جميلة عادت الى بيتها من
زمان . جميلة تشغل اليوم كثر في البيت وخارج البيت . واذا
جلست لتستريح تسمع للحال صوت حماها : رجعتا فهد ؟ ما هذا
الوقت وقت قعود !

الكل يشاركون عزيزاً في مصابه وبلواه وقل من في قلبه
بعض الشفقة نحو جميلة . اذا خرجت من بيتها تخرج كل ام في البلد
تحمل رضيعاً حتى اذا اقتربت من جميلة خاطبت طفلها هكذا : فؤاد !
— او بطرس او حنا — صفق لحالتك جميلة يا ابني صفق !...
لتلحدني هانان اليدان الحلوتان بحاء رب السماء !...

كل ذلك لتسمع جميلة ويدمى قلبها المجرع ، وجميلة كانت تسمع
ساكتة وتبكي ساكتة وتتمرمر نفسها من الحياة والعالم ساكتة .
اذا مشت تشعر كأنها تمشي فوق اشلاء آمالها التي جندلتها الايام من
حولها ، وان نامت تشعر بانها نائمة على انقراض سعادتها المهتمة . ماذا
بقي لها في هذه الدنيا ولماذا تعيش ؟

ولكن هل ذوت كل آمالها على الاطلاق ؟

اذن لماذا لا تزال تقول : « ربما ؟ ربما من الله علي !... » لومن

الله عليها ترى هل تعود اليها تلك السعادة المفقودة ؟

عشاً حاولت جميلة ان تجيب على هذه الاسئلة لانها اصبحت غريبة
عن نفسها . فالظلمة التي اكتنفت روحها لم تبق لها منفذاً لدرس
خفاياها واسرارها ، لذلك تعذر عليها ان تعطي حساباً لنفسها عن
نفسها ، فوجدت الاستسلام للايام اسهل طريق تسلكه ، ولذلك لم
تعارض ارادة حماها لما اعلنت لها يوماً عن عزمها ان تذهب بها لزيارة
دير قديم باسم العذراء تلهج النساء بعجائبه .

من قال ان زمان العجائب قد مر فليذهب الى بلدة ع . من
اعمال لبنان ويسأل عما جرى سنة ١٩١٠ . امرأة بقيت عاقراً عشر
سنوات ، لم ينفعها علم الاطباء ، ولا ساعدتها عقاير المغاربة ، ولا
شفقتها اذيرة كثيرة . لكن السيدة — المجد لاسمها — سمعت صلاة ام
عزيز الكرباج الحارة .

نعم ، لم تحب طلبات ام عزيز . فقد حملت جميلة في تلك السنة .
وما اسرع الانقلاب الذي حدث في البيت حالا بل في كل البلدة !
فعزيز عاد يناديها « قرقورتي » مع ان جميلة لم تعد تحب سماع هذا
الاسم الذي كان يمزق قلبها كخضجر حاد ولم تعد تنادي زوجها
« قرقوري » .

وصار عزيز يرجع الى البيت مساء وفي يديه وجيوبه جميع
انواع المأكولات والهدايا . الخادمة كذلك رجعت الى بيت الكرباج .
وام عزيز عادت تهتف كلما رأت كبتها تمسح القبار عن كرسي او
تحرك الطبخ في قدر : « ويلي . ويلي تقبري هانك ان شاء الله ! »
وعاد ملاك السلام الى بيت الكرباج . فترك عزيز السكر واكتفى
بالنارجيلة فقط . وعادت الابتسامة الى وجهه ورجع نور السعادة الى
عينيه . وامه تقابل تهاني اهل البلدة بقلب طافح بالفرح وتذكر
كلاً منهم ان لا فضل لها في ما جرى قائلة :

— السيدة ، المجد لاسمها !

لم يلاحظ عزيز من شدة فرحه الانقلاب العجيب الذي حدث

في زوجته • لم يلاحظ ان تلك الابتسامة الملائكية التي كانت تتلألأ على وجهها الوردي فيما سبق قد غابت الان الى الابد تاركة مكانها علامة سؤال مبهم • لم ير ان تلك القوة الكهربائية التي كانت تنسرب من عينيها الضاحكتين الى اعماق قلبه فتملأه غبطة سناوية قد اختفت الان وراء تلك الاهداب الطويلة التي تظهر كل دقيقة كأنها تستعد للبكاء والندب • لم يشعر بنعمة جديدة في صوتها ، نعمة حزن عميق لا اول له ولا اخر • لم ير اصفرار وجهها ولا تقطب حاجبيها الدائم الذي ينم عن اوجاعها النفسانية • واذا رأى بعض ذلك كان يحسبه طبيعياً في حالة الحمل •

اما جميلة فكانت كأنها انسحبت من العالم الخارجي الى داخل نفسها كما تنسحب البزاقة الى صدقتها • وهناك انفردت نفسها بنفسها لأول مرة في حياتها ، فاعتراها رعب عندما اخذت تحلل ذاتها بذاتها وترفع الستار رويداً رويداً عن اشياء داخلية كانت تشعر بها ولا تعرف معناها • لأول مرة في حياتها سألت نفسها ما عسى ان يعنى كل هذا : صباها وشبابها وزواجها وظماً روحها الدائم ، وسعادة لم تكد تلمسها حتى تقلصت من بين يديها واختفت الى الابد ؟ وانين قلبها الذي لا يبطل ، كأن حية تقرض اوصاله • وسياحاتها الى يروت والشام وزحلة ، وزيارة الاديرة والندور للقديسين وتقديم الصلوات ؟ ما عسى ان يعنى كل ذلك ؟ أهذه هي الحياة ؟ وان كانت تلك هي الحياة فما غايتها منها ؟ أن تحمل وتلد عريساً لترضي زوجها واهل زوجها ؟

هي الان حامل فلماذا لا تقنع ، ولكن كيف حملت ؟ ...
تصل جميلة في افكارها الى هذا الحد ثم تعود الى حيث بدأت .
كيفما انقلبت تشعر كأنها ماشية في دائرة مسحورة من الافكار
التي تتبعها كاشباح آمال ميتة . وكم حاولت ان تفلت من تلك الدائرة
ولم تقدر ، كم حاولت ان تتخلص من نفسها وترجع لتنغمس برأسها
في بحر الحياة الواسع ، في حب زوجها وامها وملاطفة حماتها وحميا
لكن بدون جدوى . قبلات زوجها اصبحت سماً يتفشى في كل جسدها
وملاطفة حماتها حراًياً تقطع شرايين قلبها . ادركت انها قد اصبحت
كورقة قطعها الرياح من شجرة وحملتها الى محلات غريبة قسية .
ادركت انها غريبة في بيت زوجها وبيت امها وكل بلدتها بل في العالم
كله . وهذه الغربة الروحية كانت تضغط على وجدانها كل دقيقة
وكل ثانية حتى سئمت الحياة وسئمت العالم .

*

كان العاشر من شهر ايار سنة ١٩١١ يوماً من تلك الايام الربيعية
في لبنان التي يعرفها من عاش في الاماكن المرتفعة من ذلك الجبل ،
والتي لم يظهر الى الان قم استطاع ان يفهم حقها من الوصف .
كانت الشمس تتخطر على مهلها نحو المتوسط لما عاد عزيز الكراباج
من شغله الى البيت و لم يلب زوجته جالسة على الدرج حسب عادتها .
سأل امه عنها فاجابت : انها ذهبت لتتزه منذ ساعة ولم ترجع ! ...
ثم اضافت انها قد تكون زارت في طريقها بعض الجيران .

لم يكنف عزيز بهذا التفسير لعلامه ان زوجته في المدة الاخيرة كانت تتجنب الناس ومعاشرتهم كما تتجنب الافاعي والعقارب . لذلك دخل توأ الى مخدعها ليرى اذا كانت قد لبست ثوبا من ثياب الزياوة فتأكد انها في ثيابها البيتية . لكنه لم يشاهد هذه المرة ما تعود ان يراه في غرفتها من الترتيب والانتقان . وبينما هو يسأل نفسه اين عسى ان تكون « قرقورته » وقع نظره على ورقة مطوية على صفحة الرخام امام المرأة . فاحذها واذا فيها : « تجدني تحت السنديانة جميلة » قرأ عزيز تلك الكلمات وطار بسرعة البرق الى السنديانة . وهو يعرف كل غصن من تلك الشجرة كما يعرف اصابع يديه العشر . هي السنديانة عينا التي كان يجلس تحنها مع جميلة في الايام الماضية ، ايام سكرتهما بالحب الاول وسعادة الحياة الزوجية . هي سنديانة دهرية واقضة على ظهر ربوة بحري عند قدميها نبع ماء نقي عذب . حولها كثير من الاشجار المختلفة الالوان ، لكنها اقدم شجرة في ذلك الجوار بل في كل البلدة وجوارها .

وصل عزيز الى السنديانة ووقف جامداً كمن أصيب بمس لا يدري أيكي ام يضحك .

« قرقورة ! قرقورة ! » — امامه زوجته على الارض مضطجعة على جنبها الايمن وعليها ثوب العرس ، ذلك الثوب عينه الذي وقفت فيه بجانبه من مضي احدى عشرة سنة امام الخوري بولس . على رأسها اكليل من الازهار . شعرها العتيقي مسدول على كستفها اليسرى .

وضفيرة منه تطوق عنقها . واصابعها تسند خدها اليمين .
« جميلة ! جميلة ! » جميلة لا تحيب . فانحنى فوقها ولا يزال يخالج
قلبه امل ضعيف بانها ربما كانت نائمة . اخذ رأسها بين يديه وللحال
تراجع الى الوراء وصرخ مدعوراً اذ وجد « القرقورة » جثة هامدة .
لما عاد اليه رشده واقترب منها ثانية لمح بين طيات ثوبها ، فوق
صدرها ، رسمه ورسمها في ثياب الاكليل ووجد بالقرب منها ورقة
مطروحة على العشب كأنها حاولت ان تمرقها ولكن حال بينها وبين
ذلك الموت . ففتح تلك الورقة بيد مرتجفة وهذا ما قرأ فيها :
« الى قرقوري الحبيب الذي لا يشمن ! »

« في مثل هذا اليوم ربطنا الحوري بولس بوثاق الزيجة . واليوم
— بعد مضي احدى عشرة سنة — يفصلنا الموت . فهل ننتقي بعد
اذا صح ما يقولونه عن الحياة الآتية فسوف تجدني بانتظارك على عتبة
العالم الثاني فاتحة ذراعي لاستقبالك ومهيئة شفتي لقبلك . وسوف
تسمع سؤالي مرة اخرى : كيف حالك يا قرقور ؟ آه يا عزيز ، لو
كنت الان بجانبني ! الان ، وانا واقفة بحضرة الموت ، احب ان اشكر
لك كل قبلة قبلتني اياها بحب وشوق ، اود ان اشكر لك كل كلمة
وكل حركة وكل لحظة حبت بها الحياة الي . مرت بي دقائق
جعلتني انسى ان في العالم اوجاعاً واحزاناً . وتلك الدقائق كانت من
هدايا حبك فاشكرك عليها يا عزيز ! حلمت احلاما جعلتني اظن نفسي
في السماء لا على الارض ، وتلك الاحلام كانت من نسمات حبك ،

فاشكرك عليها يا عزيز ! دقت طعم سعادة الفردوس . وتلك السعادة كانت من ثمرات حبك فاشكرك عليها يا عزيز ! اما انا فماذا قدمت لك عوضاً ؟ قدمت لك جسماً نقياً ، جميلاً ، طاهراً ، وبالأجمال كبرست لك ذاتي . وما ذنبي اذا لم تواز تقدمتي عطايك ؟ انت لم ترض بي وحدي ، لم تكثف بجميلة «مجردة» وانا قبلت بك وحدك دون بقية العالم . انت كنت لي الكل بالكل . سعادتي تمت بك وبحبك . ولكن سعادتك لم تتم بحبي . انت لم تظهر لي ذاتك في اول الامر ولكن الايام كشفت لي ما كان مستوراً عن عيني . كنت اظنك سعيداً بحبي كما كنت سعيدة الى النهاية بحبك فقط . وما امر تلك الساعة التي ادركت فيها خطأي ! أتذكر حديثنا عن «العريس» ؟ أتذكر لما سألتك اذا كانت سعادتك غير تامة بلا اولاد ؟ أتذكر جوابك لي ؟ حاولت مع ذلك ان اخدع نفسي . حاولت ان اقنع ذاتي ان محبتك للاولاد كانت كمحبة بقية الرجال ، وان حبك اياي سيبقى كما كان سواء رزقنا الله «عريساً» ام لم يرزقنا . وما امر الحقيقة التي كشفتها لي حوادث السنوات التي تلت ذلك !

«لما تأكدت ان لا رجاء مني لالد لك اولاداً نبذتني من حياتك كالنواة . ولم تكثف بذلك بل ابغضتني وكرهتني كأنني سم افعى بدأت بالتدخين ثم بالسكر ثم بشتي وضربي . أتذكر لما ضربتني لاني رفضت ان اذهب الى الكنيسة لابسة كل حلي ؟ آه ! ما ألد تلك الضربات من يدك ! قل لي بحقك أما كانت تدخل الشفقة قلبك

لما كنت تنظر الى اسير في البيت كسبح اصم اخرس ، اراقب كيف
تهبط بناية سعادتي امام عيني ، وارى نفسي غريبة كيفما توجهت ؟
انسيت اني لم ازل من لحم ودم مثلك ، اني لم افقد رقة شعور النساء ؟
هل قسيت الى حد ان لم يبق في قلبك مكان للركة على الاطلاق ؟ اه
كم مرة وددت في تلك الدقائق لو نظرت الى اعماق نفسي كما
كنت تنظر الى خفاياها سابقاً بعينيك الحارقتين ، ورأيت ما كان
يجول فيها !

« انت لا تعرف آلام الجرح في القلب . واول جرح في قلبي نلته
من يدك كان ادراكى ان حبك لي من البداية الى النهاية لم يكن حباً
اشخصي انا ، لم يكن حباً لي كإنسان مستقل بوجوده وكيانه في هذا
العالم . انت احببتني كام اولادك في المستقبل . احببتني كأننى مشترك
لك ذرية قبل ان تموت . ذاك عندك طبيعي . لكنه عندي امر من
الموت . لما كنت افكر ان لا ثمن لي في عينيك بذاتي ، ان لا قيمة
لجسمي وروحي بين يديك الا كآلة للتبذير ، كنت اطلب الموت
لنفسى . انت لا تفهم ذلك . انت الى الان لا تدرك ان المرأة انسان
ولها قيمة محصورة فيها ومستقلة عن اولادها ، انا وجدت فيك تنمة
حياتي ، لكن تنمة حياتك لم تنحصر في بل تعدني ، وهذا ما
كان يؤلمني ويجرح قلبي . احبتك قبل الزيجة واحبتك بعدها ولا
ازال احبك الان . لم ابغضك الا دقيقة واحدة فقط ، لما رفعت يدك
وضربتني ، مع اني اذكر ذاك الحادث الان براحة ولذة واشتهي لو

كنت معي لتعيده •

« هل ظننت اني شاذة عن سنة الطبيعة ؟ هل حسبت اني ، وانا امرأة ، ابغض الاولاد واعالة الاولاد ؟ آه لو تدري كم ليسة حملت ان طفلاً على ذراعي ! كنت اراه كذلك في اليقظة يتمص ثديي • واسمع دقات قلبه الصغير وارى يديه الصغيرتين تلعبان في الهواء • كم مرة رأيته يدرج امامي في الدار • كم مرة سمعته يناديني « ماما ! »

« كم مرة جلست بقرب سريريه الصغير وغنيت له لينام محبدة بوجهه الملائكي وعينيه السماويتين !.. لكنك كنت اعني عن كل ذلك • كيف لا تفهم اني لو رفضت ان اضحي سعادتي ، وهي حقيقة كائنة ، لاجل اولاد لا يزالون في رحم المستقبل ، اي لاجل ما ليس كائناً ، لا اكون اعبر بذلك عن بغضي للاولاد ؟ الا يقول المثل : عصفور في اليد ولا عشرة على الشجرة ؟ مع ذلك فقد سلمت نفسي لارادتك كعبدة حرمتني لذة الشغل في البيت خوفاً من كلام الناس ، فرضيت • صكرهتني لانني لم الد لك عريساً ، فحملت نفسي فوق طاقتها من زيارة الاطباء والقسيديسين والاديرة • انت لا تدري كم ذرفت من الدموع في خلواتي وابان سياحتي . انت لا تدري كيف كان يقطر قلبي دماً لما كنت اراك تهرب مني وتميل نظرك عني كأنني هواء اصفر ! امك وابوك كانا يشتهيان ان يقذفني عزرائيل عنك لعلك تقدر ان تأخذ لك امرأة « ولاّدة » • وهما انا احذف نفسي من حياتك • فربما وجدت احسن واخصب مني • انا كنت

متعلقة بوميض امل ضعيف ، كما يتعلق العارق بقشة . حملت المضض
والالم والذل والاهانة وانا اقول : ربما ... وبماعدت فولدت لك عريساً
بعجيبة من السماء . كنت اظن اني اذا حصلت على ذلك استرجع
خيال حبك السابق وسعادتني الاول . وشدة رغبتني في ارضائك
واسترجاع حبك حملتني على اقرار ذنب لو غفرته انت لي فلا اغفره
انا لنفسني . سيفصلنا الموت عن قريب ، فلماذا اخاف ان اطلعك
عليه ؟

« انا احمل الان في احشائي روحاً صغيرة وجسماً صغيراً . هو
الجنين الذي اعاد الابتسامة الى وجهك والنور الى عينيك . لكنه
ليس من لحمك ودمك ..

« ضحيت عزة نفسي وطهارة جسمي لاحصل عليه ارضاء
لخاطرك لكنني ادركت الان ان ما فعلته ذنب لا يغتفر . انا لا اريد
ان اشترى حبك بالخداع والزنى .. لكنني لما زينت ، زينت لاجلك
فقط ..

« اشعر بحركات هذا الطفل التعس بين ضلوعي الان . لكنها
متهمد عما قريب . ستقف دقات قلبه الصغير عندما تقف دقات قلب
امه الزانية . من هو ابوه ؟ وهل يهتمك ان تعرف ذلك او هل
ينخفض ذاك من ذنبي ؟

« يكفيك ان تعرف انه ليس ابنك ، فربما يسرك حينئذ انني
اموت واميته معي . الا فاعلم يا عزيز ان العاقر انت لا انا . مع ذلك

انا مجرمة في نظرك ونظر العالم ، فهل قتلي لنفسي جريمة كذلك ؟
او لم امت قبل الان ؟ ألم اكن ميتة كل هذه السنين التي تركتني
فيها وحيدة غريبة كسيرة النفس والقلب ؟ ومن هو قاتلي ، ألسنت
انت ؟ الان لا مرد لما فات ، ان عزيزاً الذي احبته روحي اولاً راح
ولن يرجع . فما غاييتي بعد من الحياة ؟

« لماذا اتكلم عن كل هذه الامور ؟

« بعد دقيقتة تجمد هذه اليد وتضمحل هذه الافكار وتسكت
دقات هذا القلب الى الابد . ها الشمس تميل الى المغيب . وانا اشتهي
ان تفارقني الحياة قبل ان يفارق النور اغصان السديانة . في السديانة
فوق رأسي جوق من عصافير الحسون . ما الذي تغاريدها ، ما اطيب
خبر الساقية وحفيف اوراق السديانة !

« اتذكر لما كنا نأتي ونجلس هنا اول ما عرفنا الحب ؟

« آه لو كنت بجانب الان لاضمك ولو مرة الى صدري قبل ان
اودع هذا العالم ! هنا ولدت محبتنا وهنا ادفنها معي .

« في يدي الان رسنا في ثياب الاكليل . ما كان اجلك والصفك
يا عزيز في ذاك النهار ! ما اجل شاربيك وما اعرق سحر عينيك وما
الذ نضارة وجهك ! آه لو يعود عزيز صباي ، عزيز حيي ، عزيز
حياتي وسعادتي !...»

« ما كان الذ الحياة معك يا عزيز ! اشكرك . اشكرك .
اشكرك على كل قطرة من السعادة التي ارتشتها من ينبوع حبك

واطلب منك صفحاً عن كل اساءة صدرت مني نحوك ان كان بالقول
او بالفعل او بالفكر • انا اموت واسمك بين شفتي ••• هل
يمكنك ان تدفن هذه الصورة معي؟ ••• احب ان انام نومتي الاخيرة
مع رسم حبيبي عزيز الذي علقته به روحي من يوم ادركت معني
الحب ••• لا طلب لي اليك سوى ان تصفح عن هفواتي •••
ولا وصية لي عندك سوى امي • امي • امي ••• حبيبي امي ! ترى
ماذا تفعلين بعد انحجاب جميلتك عنك الى الابد؟! •••

« اذا ذرفت على تربتي دموعة فقط ••• دموعة واحدة ••• اكون
ممتنة لك حتى بعد القيامة ••• وداعاً يا قرقوري الحبيب! •• وداعاً
يا قرقوري الذي لا يثمن • — قرقورتك : جميلة »

*

اخبرني صاحب من قرية عزيز الكراباج انه رآه حديثاً في
نيويورك ، وسأله هل تزوج ثانية • فاجابه متنبهاً وفي صوته غصة :
« لا جميلة بعد جميلة ! » — « ١٩١٥ »

الفصل ستة سول لول
سول لول • وسول لول
سول لول وسول لول

جمعية الموتى

فصل من رواية ذات فصول

(كُتِبَ هذا الفصل ابن الجماعة اللبنانية
في الحرب العظمى . وفيه ما قد يظنه
البعض آراء سياسية . ونحن نعرف ان
مؤلفه ابعد ما يكون عن السياسة وألوانها
الروائية . وهو اذا ما رضي عن اثبات
هذا الفصل فلأن فيه صوراً ما تزال
تنطبق على كثير من الناس والحالات ،
لا سيما في لبنان . — « المكشوف »)

يمثل المسرح مقبرة واسعة تعمرها السكينة وينيرها ضوء القمر
والنجوم . في وسطها شجرة صنوبر قديمة يبس قسم كبير منها
وعند اسفل ساقها صخرة سوداء . بعض القبور لا يزال ترابه رطباً ،
وبعضها قد تغطى بالاعشاب والاشواك . عزرائيل يتخطر بين القبور
وفي يده جمجمة بشرية ، ثم يقترب من الصنوبرة فيقفز الى اعلى
الصخرة ويجلس هناك ساكناً متأملاً .

عزرائيل — (ضاربا الصخرة بالجمجمة في يده) ايها الموتى ،
اجتمعوا !

تنتفح كلوم الارض فتخرج منها الوف من العظام المختلفة
الاشكال والالوان . ثم تنضم بعضها الى بعض فتألف منها هياكل
بشرية متفاوتة في القياسات والتركيب ، بعضها مجرد من اللحم
والجلد ، وبعضها مغطى بجلد نخره الدود ، وبعضها لا تزال عليه قطع
من اللحم مدلاة من اطراف العظام . وترى بينها هياكل صغيرة
تقودها هياكل اكبر منها ، وهياكل محنية كالاقواس تسير الهويناء ،
تقترب كلها من الصخرة فتجثو امامها في شكل نصف دائرة .

عزرائيل — انهضوا ايها الموتى . (يضرب الصخرة بالجمجمة
فتنهض الهياكل وتسمع لقطعة عظامها رنة غريبة ، هائلة) . لقد
دعوتكم يا ابناء القبور هذه الليلة لان خارج المقبرة عدداً من الموتى
الحديثين يطلبون الانخراط في سلك جمعتكم الموقرة . وقبول
الاعضاء ، كما تعلمون ، وكما ينص قانون جمعتكم الاساسي ، يتعلق بكم
لا بي . فانا ، وان كنت سلطان المقابر المطلق ، قد آليت على نفسي
ألا اتدخل في شؤون رعاياي الداخلية . لذلك وهبتكم الحق المطلق في
قبول كل من جاء يطلب الانضمام الى هيئتكم الموقرة او رفضه . ولما
رأيت ان هؤلاء الطالبين الواقفين خارجاً قد الحوا بالانضمام اليكم
دون سواكم ، مدعين انهم سوريون ، فقد رأيت ان اجمعكم الليلة
لنظرة في امرهم ، حتى اذا ما رفضتموهم الحققتهم بمقبرة غير هذه
المقبرة . فلنباشر بفحصهم كيلا نضيع وقتنا الثمين سدى . (الى
اربعة هياكل عن يمينه ويساره) ايها الحراس . اتونا بواحد من
هؤلاء المتقدمين للعضوية . (يخرج الحراس ويعودون برجل قصير
القامة . فليظ الجثة ، نافر البطن ، مزدوج الذقن ، حليق الشاربين
والحية . فيقودونه الى حضرة عزرائيل .)

عزرائيل — ما اسمك ؟

القادم — ادوارد غراي . وبالعربية — غنطوس شيبان .

عزرائيل — من اين انت ؟

القادم — من مدينة نيويورك العظمى ، اما في الوطن فسقط رأسي

خربة بو سيمان من اعمال البقاع .

عزرائيل — ماذا كنت تعمل في الحياة ؟

القادم — كنت تاجر كيمونا . اما في الخربة فكنت اكارى

على جحش حمار قبرصي .

عزرائيل — دينك ؟

التاجر — في الوطن : روم . وفي البرازيل : باباوي . وفي

المتحدة : بروستيتي . اما الان فديتكم ديني .

عزرائيل — لا يخفاك ايها التاجر ان « جمعية الموتى » مؤلفة

من الذين ابتأسوا الحياة في سوريا ، من الذين قضوا جوعاً او برداً

او على المشانق او بحد السيف او في السجون او في المنافي او في

ميادين القتال . او من اصدقاء هؤلاء البؤساء . وبالاصدقاء نعني كل

من شقي لشقائهم وقام بعمل حسي لتخفيف بؤسهم . من ايهم انت ؟

وباي حق تطلب الانضمام الى هذه الجمعية الموقرة ؟

التاجر — اولاً : انا سوري . ثانياً : لقد ساعدت هؤلاء

النكوبين بمالي وها وصل من لجنة اعانة النكوبين في سوريا ولبنان

يشهد بانى دفعت عشرة دولارات من مالي الخاص لاجل خلاصهم .

ثالثاً : قبل ان اموت كنت استعد ان ارسل عشرين دولاراً لامي

في الخربة لكنك لم تهلني . رابعاً ...

عزرائيل -- (يقاطعه) يكفي . اما كونك سوريا ، فهذا ادعاء

باطل اذ لم يبق في العالم من سوريين سوى هؤلاء الذين تراغم من

حولك اعضاء هذه الجمعية الموقرة ومن تخلف وراءهم في سوريا
من اقارب واصدقاء . اما الدولارات العشرة فسترد لك عشرين •
ذكرت ان لك امأ في سوريا • (الى الهيئة) هل ام هذا الرجل بين
الجمع ؟ (ينفرد من الحلقة هيكل مقوس الظهر وينطق بصوت
اجش)

الهيكل — انا ام غنطوس . لكني انكر هذا الرجل كما انكرني ،
فهو ليس ابني ولا انا ولدته . تعود الى الحلقة مقطقة بعضامها)
عزرائيل — (الى الهيئة) هل تقبلون هذا التاجر في جمعيتكم
يا احرار القبور ؟

الموتى — (بصوت واحد) ليذهب عنا فهو ليس منا •
عزرائيل — (الى الحراس) ادفعوا له عشرين دولاراً وخذوه
الى مقبرة العشارين وأتوننا بسواه • (يخرج الحراس بالتاجر ويعودون
بشباب حليق ، تحت ابطة محفظة اوراق ، يسير مع الحراس باسما ومحياً
الجمع باحناء رأسه يمنة ويسرة وهو يلوك في فمه قلماً من الرصاص •)
عزرائيل — ما اسمك ؟

القادم — اسمي المستعار الذي اعرف به في عالم الادب ، مجنون
ليلي • اما اسمي الحقيقي فهو : حنا بو دهنه •

عزرائيل — من اين انت ؟
القادم — من مصر القاهرة • لكنني ولدت في قلعة الشادوف .
عزرائيل — ماذا كنت تعمل في الحياة ؟

القادم — (باسماً) انظم الشعر .
عزرائيل — ماذا فعلت من اجل سوريا لتؤهل نفسك الانضمام
الى هذه الجمعية الموقرة ؟

الشاعر — (بعضمة كلية) هل فاتك اني انا القائل :
يا قوم هبوا فسوريا تناديننا والترك والجوع قد افنوا اهلينا !
وقد تناقلت قصيدتي الجرائد والمجلات السورية في المهاجر
وردها الكبار والصغار وانا القائل كذلك :
يا بني لبنان يا نسل الكرام يا سباع الغاب هبوا للحسام
وكذلك ...

عزرائيل — (يقاطعه) سألتك ماذا فعلت من اجل سوريا لا
ماذا نظمت من القصائد ...

الشاعر — وماذا يقدر شاعر ان يفعل اكثر مما فعلته انا . دعوت
القوم الى التضحية فلم يضحوا . ودعوتهم الى التطوع فلم يتطوعوا .
فهم قوم اموات . تناديهم وكأنك تنفخ في رماد .

عزرائيل — وبماذا ضحيت انت ؟

الشاعر — (يبقي صامتاً محتاراً)

عزرائيل — ولماذا لم تتطوع ؟

الشاعر — (بعد سكوت طويل) انا ... انا ... خفت على
موهبيتي من ان تودي بها رصاصة عدو . والمواهب في شعبنا السوري
قليلة . فوجدت من الحزم ان احفظ حياتي وموهبتي لاجل شعبي

المحجوب .

عزرائيل — (الى الهيئة) هل تقبلون هذا الرجل في جمعيتكم
الموقرة يا احرار القبور ؟

الهيئة — ليذهب عنا فهو ليس مناه (يسمع بين هذه الاصوات
صوت فتاة تصيح كأنها تستغيث : اقبلوه ! اقبلوه ! فهو حبيبي ولا
ازال احبه .)

عزرائيل — (الى الحراس) ادفعوا له مائة بارة اجرة الوقت
الذي صرفه على نظم قصائده وخذوه الى مقبرة المجانين واتونا بسواه .
(يخرج الحراس بالشاعر وقد زالت الابتسامة عن وجهه ثم يعودون
برجل طويل القامة ، رقيق الجسم ، حاد النظر ، احذب الاتق
اعوجه ، اطراف اصابعه وشفتاه ملطخة بالخبير)
عزرائيل — ما اسمك ؟

القادم — (بعظمة كلية) سعيد شاتيللا ، صاحب ومحرر جريدة
« الحق » اليومية في مدينة ريو دي جنيرو من اعمال جمهورية
البرازيل .

عزرائيل — من اين انت ؟

الصحافي — من عين الزعرورة ، من حارة الفوقا . ابن الشيخ
فرهود شاتيللا وابن اخت الامير سعد الله .

عزرائيل — دينك ؟

الصحافي — ماروني . ولي الشرف بذلك . فقد كرسست جريدتي

للدفاع عن شرف الطائفة المارونية في المهجر فنكلت باعدائها ووقعت
الرعب في قلوب مبغضها فاصبح يرهبنى الارثوذكسي ويرتجف من
قلمي البروتستنتي ويهرب من وجهي الدرزي ...

عزرائيل — (يقاطعه) هذا خارج عن الموضوع . فلا ماروني
ولا ارثوذكسي ولا بروتستنتي ولا درزي ولا مسلم عندنا . وجمعيتنا
لا تفرق بين المذاهب . فباي حق تطلب الانضمام الى هذه الهيئة
الموقرة ؟

الصحافي — بكوني لبنانياً . فانا الذي كرسيت جريدتي للدفاع
عن حقوق لبنان في خلال عشرين سنة . وفتحت ، عيون اللبنانيين في
المهاجر فابصروا انهم امة متميزة بتاريخها وادابها واخلاقها عن الشعوب
المجاورة لها . وبيئت الماروني ان حق السلطة في لبنان عائد اليه لانه
يمثل الاكثرية المطلقة في البلاد ولم اكتف بذلك بل برهنت للقاضي
والداني ان المواطنة امة اعرق من كل امم لبنان في المدنية وميزت
بينهم كلمة وبين بقية شعوب لبنان الذين ليسوا سوى خليط اقوام
متعددة . وحملت حملاتي الشهورة ...

عزرائيل — (مقاطعاً) وهذا خارج عن الموضوع كذلك اذ لا
لبناني ولا سوري ولا فلسطيني في هذه الهيئة بل الكل سوريون .
فهل من خدمة اتيتها نحو سوريا والسوريين تؤهلك الانضمام الى هذه
الجمعية الموقرة ؟

الصحافي — خدماتي اكثر من ان تعد او تحصى . أو لست انا

الذي دافع عن عفاف المرأة السورية؟ أو لست أنا الذي جاهد عشرين عاماً لبث المعارف والعلوم بين السوريين؟ أو لست أنا الذي ساعد لجنة المنكوبين بنشر اذاعاتها واعلاناتها مجاناً على صفحات « الحق »؟ أو لست أنا اول من دعا الى التطوع لتحرير لبنان من نير الاتراك؟ أو لست أنا الذي ضرب على ايدي المفسدين والمخترقين بعضاً من حديد؟ ولا شك عندي انه اذا كان الشرف لا يزال حياً بين اعضاء هذه الجمعية فيبينهم من يذكر خدماتي العديدة نحو الامة... .

عزرائيل — (الى الهيئة) هل بين احرار القبور من يقدم شهادة حسنة بحق هذا الرجل؟ (ينفصل عن الجمع هيكل متوسط الحجم)

الهيكل — اشهد امام عظمتك ايها السلطان المطلق وامام اخواني احرار القبور ان هذا الرجل قد دفعني بما كان يكتبه في جريدته الى قتل جاري لانه كان ارثوذكسياً من الولاية وكنت مارونياً من لبنان . وقد جمعتني عنايتك الابدية اليوم بجاري . فاستغفرته فغفر لي ، فانا واياه اليوم اخوان متساوان وكلانا يلعن هذا الرجل . (يصمت الهيكل ويعود الى مكانه فينفصل هيكل آخر)

الهيكل الثاني — (رافعاً يده الى فوق) اشهد امام عظمتك ايها السلطان المطلق وامام اخواني احرار القبور ان هذا الرجل قد نهش عرضي في جريدته نهش الكلاب للجيئة فحملني على ضرب زوجتي وطردها من بيتي . وقد جمعتني عنايتك الابوية اليوم بزوجتي فتحققت

اني ظلمتها وظلمت نفسي • وطلبت منها العفران فغفرت • فيها انا
وزوجتي نلعن اليوم هذا الرجل • (يصمت الهيكل ويعود الى
مكانه • فينفضل هيكل ثالث حول عنقه قطعة من حبل)

الهيكل الثالث — (رافعاً يده الى فوق) اشهد امام عظمتك ايها
السلطان المطلق وامام اخواني احرار القبور ان هذا الرجل قد جعل
حياتي مرّة حتى بعد الموت اذ كان كل يوم يدعو الناس في جريدته
الى التضحية في سبيل الوطن مشيراً الي كشيد من شهداء الحرية •
وكان كلما ذكر اسمي مرة يشكر الله في اعماق قلبه ألف مرة لانه
لم يكن في سوريا يوم نصبت المشانق • فانا واخواني حاملي الحبال
نلعن هذا الرجل • (يصمت الهيكل ويعود الى مكانه)

الصحافي — (وقد احتدم غيظاً) هذه كلها اختلاقات محضة
اولدها الحسد في قلوب هؤلاء المنافقين • هم يحسدوني على مركزي
الصحافي والاجتماعي • هم ينازعونني الزعامة • والشعب لا يعرف
زعماء سواي • سانا قشهم الحساب على صفحات « الحق » وسافضح هذه
المؤامرة ضدي وضد لبنان • وساكشف كذلك اسرار هذه الجمعية
المفسدة • فبأي حق تجمعون بين اللبناني والسوري والفلسطيني وبين
الماروني والارثوذكسي والدرزي واليهودي ؟ (الى الجمع) ايها
اللبنانيون — يا ابناء الاشاوسة والمردة ! ايها الموارنة — اتبعوني !
فهؤلاء يرومون هلاككم وسلب حقوقكم • انا زعيمكم ...
عزرائيل — (يقاطعه مخاطباً الهيئة) هل تقبلون هذا الرجل

يا احرار القبور ؟

الموتى — (بصوت واحد) ليذهب عنا فهو ليس منا (تسمع اصوات : ليكن ملعوناً !)

عزرائيل — (الى الحراس) ادفعوا له الف دولار اجرة نشر اذاعات واعلانات لجنة المنكوبين وخذوه الى مقبرة المفسدين واتونا بسواه . (يأخذ الحراس الصحفي فيمانع فيجرونه جراً وهو يرفس وينادي باعلى صوته : « ايها اللبنانيون ، ايها الموارنة ، اتبعوني ! » بعد قليل يعود الحراس برجل قصير القامة ، غليظها ، احول العينين ، كثيف الشاربين ، واسع الشدق ، نافر البطن ، يسير مع الحراس ناظراً الى من حواليه كأنه بكل نظرة من نظراته يقرض العالم الف جميل .)

عزرائيل — ما اسمك ؟

القادم — (باهمية) سعيد بك شنتر حنانا .

عزرائيل — من اين انت ؟

القادم — من باريس . اما وطني الاصلي فهو « جب المعاصر » .

عزرائيل — ماذا كنت تعمل في الحياة ؟

القادم — كنت ولا ازال سياسياً .

عزرائيل — ماذا فعلت من اجل سوريا اتوهل نفسك الانضمام

الى هذه الجمعية الموقرة ؟

السياسي — لقد اسست لا اقل من عشرين جمعية سورية في

المهاجر . واخر جمعية اسستها دعوتها « جمعية زهور الادب لضم
 السوريين الى العرب » غايتها احياء الدولة العربية وتجديد سالف
 مجدها ، وتثقيف العرب والسوريين وتدريبهم في الامور السياسية
 ليصبحوا قادرين بالتدريج على الحكم الاداري المستقل . وقد اكتسبت
 في هذه المدة خبرة واسعة في الشؤون السياسية لاسيما في القوانين
 البرلمانية فاننا اعرفها كما اعرف اصابع يدي . وكسوري مخلص
 كرس خير قسم من حياته لخير شعبه أبت علي وطني الا ان
 اتابع خدماتي امام شعبي حتى بعد القبر . واذا علمت بوجود
 جمعتكم الزاهرة جئت اعرض عليكم خبرتي الواسعة ومعارفي الجملة .
 ولا شرط عندي اشتراطه عليكم لقاء اتعابي الا ان اكون رئيس هذه
 الجمعية الحرة لا حياً مني بالتفوق والرئاسة ، بل لعلمي ان ليس بين
 اعضائكم من درس القوانين البرلمانية درساً مدققاً مثلي . وانامستعد
 ان اعرض وقتي ومعارفي مجاناً لاجل خير الامة العربية . واذا تعذر
 انتخابي للحال رئيساً فاننا قابل ان اكون رئيساً مشاركاً لمدة قصيرة .
 ولي نصيحة اعرضها عليكم وهي ان تباشروا باصدار جريدة تكون
 لسان حال الجمعية اذ ان اذ حزب السياسية لا تقوم في هذه الايام
 بدون صحافة مناصرة . واذا شئتم ففوضوني ان اخبر في هذا الامر
 صديقاً لي محنكاً في ابواب الصحافة وله خبرة ...

عزرائيل — (الى الهيئة) هل من يقدم شهادة حسنة بحق هذا
 الرجل ؟ (سكوت عميق)

السياسي — (بخنق) انا لا اطلب شهادة من احد فاعلمي تشهد لي • واذا انكرني السوريون فانا لست اول نبي لم يجد كرامة بين قومه • ولا شعب ينكر الجميل بين كل شعوب الارض كالسوريين • عزرائيل — (يقاطعه ضارباً الصخرة بالجمجمة في يده) هل تقبلون هذا الرجل في جمعيتكم يا احرار القبور؟

الموتى — ليذهب عنا فهو ليس منا • عزرائيل — (الى الحراس) خذوه الى مقبرة الفرقين علمهم يتفقون على انتخابه رئيساً عليهم • واتونا بسواه • (يخرج الحراس بالسياسي فيسير معهم لا عناءً ومتمتماً) ثم يعود الحراس برجل متوسط العمر ، هزيل الجسم كالح الوجه ، مسترسل الشعر ، يكاد لا يقوى على جر ساقيه وكل ما عليه من الثياب عباءة بالية •

عزرائيل — ما اسمك؟

القادم — عبدك رو كس ساروفيم من مزرعة الوادي بكسروان •

عزرائيل — ماذا كنت تعمل في الحياة؟

القادم — ضراب معول ، شغيل فاعل •

عزرائيل — دينك؟

ساروفيم — موراني •

عزرائيل — باي حق تطلب الانضمام الى هذه الجمعية؟ هل مت

جوعاً او برداً او على المشقة او بحد السيف او في السجن او في المنفى

او في ميدان القتال؟

ساروقيم — مت من الجوع والبرد والهواء الاصفر والزنتاري .
وبعد هذا وكله مرّتي هون وابني هون وابن عمي هون وكل اهل هون .
عزرائيل — (الى الهيئة) هل تقبلون هذا الرجل ؟

الموتى — (بصوت واحد) قبله فهو منا وفينا . (ينفصل للحال
هيكل طويل رقيق يتبعه هيكلان صغيران ويرتمي الثلاثة على العضو
الجديد فيقفز الصغيران الى عنقه ويطوقانه بايديهما صارخين : « يبي
يبي ! » ثم يقترب بقية الموتى منه فيقبلونه قبلة الاخاء .)

عزرائيل — (الى الحراس) اتونا بسواه . (يخرج الحراس
ويعددون بطفل يكاد يبلغ الثالثة من العمر يحمله احدهم على ذراعيه
ويمثل معه امام عزرائيل .)

عزرائيل — ما اسمك ايها الولد ؟

الولد — (باكياً ومضطرباً وبصوت مرتجف) شكري ...

عزرائيل — من اين انت ؟ (وقبل ان يتم سؤاله ينفصل عن
الجمع هيكل امرأة قد تدلت من اطرافه قطع لحم وجلد سوداء وعلى
صدره ثديان قد التصقا بالعظم)

الامرأة — (تهجم على الحارس وتخطف الولد من بين ذراعيه
وتضمه الى صدرها اليابس مقبلة اياه بشوق ولهفة) شكري ...
شكري ... ولدي ! ولدي !

عزرائيل — (الى الحراس) من اين جاء هذا الولد ؟
حارس — اخبرنا رواد عظمتك ايها السلطان المطلق انهم التقطوه

اليوم مع كثيرين من الاحداث والشيوخ في اسواق مدن مختلفة وعلى
قارعات الطرق وفي زوايا البيوت في انحاء البلاد السورية ولا يزال
نحو المائة منهم ينتظرون الدخول وراء السور .

عزرائيل — (الى الهيئة) قد طالت جلستنا يا ابناء القبور والوقت
قصير والشغل كثير وانتم في حاجة الى الراحة . فهل تقبلون هؤلاء
المائة طالب الواقفين خارج السور ؟

الموتى — تقبلهم .

عزرائيل — (الى الحراس) دعوهم يدخلون فهم احرار من الان
الى الابد (يخرج الحراس ليدخلوا المنتظرين خارج السور) هل من
رأي يجب احكم ان يديه قبل انحلال الجلسة ؟

(ينفرد هيكل قصير ، محني الرأس ، حول عنقه قطعة جبل
ويتنصب امام عزرائيل .)

الهيكل — يا صاحب العظمة ! لقد تبين لنا مما سمعناه هذه النيلة من
الاجر والشاعر والمخافي والسياسي ان على الارض اناشاً يدعون انهم
سوريون فيصدرون الصحف وينظمون القصائد ويؤلفون الجمعيات
للدفاع عن حقوقنا ولترقيتنا الاقتصادية والادبية والسياسية وتحريرنا
من تحت نير العبودية الاجنبية . وقد سمعت الكثيرين من اخواني
الاموات يشكون من هذه الجرائد والقصائد والجمعيات لانها تقلق
راحتهم الابدية وتعكر صفاء حياتهم الحرة التي يتمتعون بها تحت
عنايتك ايها السلطان الاعظم ، اذ لا يسكاد يمضي يوم لا نسمع فيه

هؤلاء الناس يحلفون باسمائنا ويذرفون علينا الدمع وينوحون . ولو
 انهم سيكون دمعاً لكان لنا في ذلك تعزية . لكنهم سيكون كلاماً
 وينوحون من قلوب ضاحكة واجواف مفعمة ويحاربون لاجل
 تحريرنا وهم جلوس في مقصوراتهم وقهاويهم ومخازنهم . فانا باسم اخواني
 سكان القبور الاحرار اعترض بكل قواي على هذه الاعمال التي تقلق
 راحتنا وتسلبنا لذة التمتع بحريتنا الجديدة واستعطف عظمتك ان
 تبلغ هؤلاء المقتنين اعتراضنا مع رسول خاص . والذي يزعمني
 ويزعج اخواني بنوع اخص هو ادعاء هؤلاء المقتنين بانهم يرومون
 تحريرنا . وقد فاتهم اتنا الاحرار وانهم العبيد . وشفقة على هؤلاء
 الخدوعين قد رأيت مع بعض الاخوان ان نؤلف لجنة ندعوها «لجنة
 الاموات لتحرير الاحياء» . فنحن قد ذقنا طعم الحرية وهم لا يزالون
 يثنون تحت اثقال اوهام عديدة . فالواجب يدفعنا كسوريين احرار
 ان نحرر السوريين العبيد فنخلص بذلك من كل انواع القلق الذي
 يسيبونه لنا ولا نفسهم ، حتى اذا ما تحرروا اقتبلناهم احراراً بين احرار .
 (تموج الهياكل ويعلو تصفيقها وتخرق سكينه الليل اصواتها
 الرهيبة : « براقو ! براقو ! »)

عزرائيل — نظراً لاستحسان الجميع رأيك سنجري به . والان
 الى قبوركم ايها الموتى !
 (تعود الهياكل الى قبورها عظاما مبعثرة فتسود السكينة فوق
 القبور .) — « ١٩١٧ »

صالح
 اهلنا جميعاً نريكم
 على كل راسهم والى
 راسهم . فانا جميعاً
 بكم

الذخيرة

٧— كان ما كان

= ٩٧ =

بثست الساعة التي شككت فيها بقوة الخيبة !
 بثست لانها انتزعت مني مميراً يندر نظيره بين السمار .
 توطدت العلاقات الودية بيني وبين شاهين بطرس الجزيني في
 آخر الاسبوع الاول لعودته من البرازيل وقد رغبت في التقرب اليه
 لعذوبة حديثه وطلاوة اقاصيصه . فلم يمض على تعارفنا شهران حتى
 أصبحت قادراً ان أقص عن البرازيل ما كان يدفع البعض الى الظن
 بأنني ولدت وقضيت قسماً طويلاً من حياتي فيها . لكنني كنت
 اضطر كلما دعاني احد من السامعين الى دعم قصتي ببرهان ان احيل
 السائل الى صديقي شاهين . وصديقي شاهين كان يدحض كل
 شكوك السامعين ببرهان قاطع لا يحتمل الرد والتساويل « رأيت
 كذا وكذا بعيني » او — « سمعت كذا وكذا باذني » . فكان اذا
 اخبرني عن الافهام التي تزدرد الثيران — مثلاً — يقص الحادثة عن
 نفسه ولسان المتكلم هكذا :

— « كنت ماراً ذات يوم في حرج ككثيف واذا بشور بري
 واقف كالمسحور في منتصف الطريق التي كنت سائراً فيها . وبينما

فأنا افكر في وسيلة للفرار منه سمعت ففخة كانها من كور حداد .
 واذا بالثور يهوي الى الارض بلا حراك . وهنا برزت من وراء
 شجرة افعى كبيرة سوداء ، لو قلت لكم ان محيط دائرة جسمها
 يساوي استدارة منديانة مار فقولوا او تزيد فصدقوني . انزات بندقيتي
 عن كتفي ووقفت مـكاني اراقب حركاتها . اقتربت اولاً من رأس
 الثور وشرعت تلحسه بلسانها ثم انتقلت الى رقبته ثم الى ظهره
 وهكذا حتى لحست كل جسمه وانت على آخر ذنبه . والآن انتهت من
 لحسه اخذت تبتلعها بادئة من الذنب . فتركها ولم يسبق من الثور
 خارج بطنها سوى قرنيه .

وقد لا حظت في مدة تقربي من شاهين انه يشم من كل من
 ييدي أقل شك في صحة رواياته واقاصيصه . لذلك كنت اتحاشى
 جهدي كل سؤال يشتم منه شك او تكذيب . ومما ادهشني من امره
 ان جراب اخباره كان بجرأ بلا قاع حتى انه لم يقص علي القصة
 مرتين ، وكان كلما انهي قصته ورأى الدهشة بادية على وجهي بادرنى
 بقوله :

— « هذه بسيطة . عندي اغرب منها بكثير . »

فهيج افكاري بترداد هذه العبارة الى ان جئته يوماً قاصدا ان لا
 انصرف عنه حتى اسمع اغرب ما عنده من الاخبار . فجلسنا حسب
 عادتنا على مصطبة امام بيته تظللها دالية من الكرم قد تدلت
 عناقيدها فوق رأسينا ، وجيوش الزلاقط والزناير تجول بين حباتها

مهلة مدممة .

ولم تمض بضع دقائق حتي وجدتني قد انتقلت مع جليسي الى
آجام البرازيل اراقب عجائب المخلوقات ورافق صديقي في رحلاته
المخوفة بالمخاطر وخيل الي أكثر من مرة ان الجالس بجاني لم
يكن شاهين بل شبحه . وكان كلما اتى على آخر حكاية رمقني بنظرة
من يعرف قيمة نفسه ويرتاح قلبه لعلامات الدهشة البادية على وجهي .
اما انا فكنت عند نهاية كل قصة اردد على طرف لساني سؤالاً
اعدته قبل مجيئي . وهو : « هل هذه اعرب ما عندك . »
وكأنه قرأ ما كان بذكري فأنهى قصة طويلة لم اصغ لتفاصيلها
كل الاصغاء وبادرني بقوله :

— « هذه حادثة غريبة . انما عندي اعرب منها بكثير . فهل
تحب ان تسمع اعرب ما عندي ؟ »

وما كدت ان اجيبه « هات واسعنا » حتي رأيته قد أخذ يفك
ازرار قميصه ثم مديده الى تحت ابطه وأخرج من هنالك قطعة من
الجلد الاسود مثثة الزوايا معلقة بخيط اسود حول عنقه . فالقيت عليها
نظرة ازدراء وأملت وجهي باستم . لكن صاحبي لم يهتم لازدرائي
وابتسامة الاستخفاف على وجهي بل أخذ بيدي ومد قطعة الجلد
الى تحت انفي قائلاً :

— « أتدري ما هذه ؟ لو عرفت قوتها كما اعرفها انا لما كنت
تضحك . هذه « ذخيرة » من عود الصليب ، الصليب الذي علق

عليه المسيح . لا تضحك فانا قد ضحكنا قبلك ، لكني لا اضحك
الان . انا — وانت تعرفني — انا رجل عصري . قديسون وملائكة
وشياطين وجنة وجنم وآله وانبياء : « حط بالخرج » . انا عصري
لا اعتقد بدين او ديانة . وكما تراني لست من بسيطي القلب . لسكني
أو من بهذه الخشبة . »

فاحتريت في امري ولم ادر أأخذ كلامه مأخذ جد او هزل .
لذلك سكنت وكأنه عرف ما دار في خلدي فتابع كلامه :
— « انا لا امزح . فهذه الخشبة هي ربي والهي الان وكل اوان
والى دهر الداهرين . »

واذ رأيته في موقف جد حاولت ان اقمعه ببراهين تاريخية
وعقلية ان من البهتان ان تكون تلك الخشبة من الصليب الذي سمر
عليه الناصري ، وانه اذا صح ان الصليب الذي وجدته هيلانة كان
صليب المسيح الحقيقي فلا يعقل ان يسمح الذين ظفروا بتلك الجوهرة
بعد هيلانة بتجزئتها الى كسر صغيرة كالتي معه ، واننا اذا سلمنا
بتحطيم ذاك الصليب فلا نقدر ان نسلم بان رؤساء الديانة المسيحية في
كل الاقطار قد تخلوا عن كسرة منه للعلمانيين ، وان الذين يحملون
امثال « ذخيرته » يعدون بالالوف ، وانه قد مضى على وجود الصليب
اكثر من الف وخمسمائة سنة فمن اين له ان يبين ان القطعة التي
معه هي من الصليب الحقيقي ، الى ما هنالك من البراهين التي
كنت أحسبها كافية لدحض رأي كهذا . واخيراً سألته اذا كان

يؤمن بقوة صليب المسيح فلماذا لا يؤمن بالمسيح نفسه ؟ فاجابني
برودة خاطر عرقلت لساني وبلبلت افكاري :

-- « قد قلت لك انني رجل عصري . وانت تعرفني . فكيف
أؤمن بالمسيح وعجائبه وكلها تخالف العقل الصحيح على خطمستقيم !
اما هذه الحشبة فقد رأيت افعالها بعيني وجربت قوتها بنفسي .
فكيف اشك بها ؟ اما انها من صليب المسيح فالرجل الذي
ابتعتها منه نفى من عقلي كل الشك في امرها . هو يوناني الاصل .
كان قبلاً كاهناً في القدس مقرباً من البطريرك . فاهدي اليه
البطريرك هذه « الذخيرة » وليس مثلها في العالم كله سوى واحدة
عند البطريرك المسكوني في اسطنبول واخري في بطرسبرج وثالثة
في كنيسة القيامة في القدس . وقد اراني حجة ناطقة تؤيد ذلك
ولا تحتمل الشك . وعدا ذلك قد قلت لك اني شاهدت عجائبها
بعيني . وقبل ان ادفع الى اليوناني عشرين ليرة ثمنها جربتها بالف
طريقة . يا حيف عليك ! اتظنني من المغفلين ؟ اقول لك اني لم
اشترها حتى علقها اليوناني في عنقه وأعطاني بندقيّة مزدوجة
فحشوتها بيدي هذه (وضرب يده اليسرى باليسرى) ثم وقف
على بعد خمس خطوات مني وقال : « اطلق عيارك » فطاقت
العيارين واليسوناني لم يصب بأذى على الاطلاق . نعم لم يخمش اقل
خمش . حيثئذ صدقت ما كان يقصه لي عن انه اصيب بعشر رصاصات
في الحرب ولم يجرح ، وانه قضى مرة في البحر يومين عندما تحطمت

الباخرة التي كانت تقله فغرق وغرق كل ركبها الا لان هذه
« الذخيرة » كانت معلقة برقبته . اي . يا حيف عليك . ألا تعرف
اني من الذين « نزعوا الدبس عن الطحينة » ؟ صاحبك شاهين ليس
من البسطاء يا صاحبي .

قصدت ذات ليلة . بعد ان عملت الذخيرة في عنقي . -- صديقاً لي
سا كنأ في مزرعة بعيدة من المدينة . وكانت طريقي بين الاحراج .
امتطيت صهوة فرسي واطلقت له العنان . وبينما انا في منتصف الطريق
بين ادغال كثيفة قائمة الى الجانبين واذا بفرسي وقف وشخر ثم
ارتجف كالقصبه . نظرت الى امامي فاذا بنقطتين تبرقان في الظلمة
فعرفت على الفور ان امامي نمراً يتحفز للوثوب علي . وما هي الا
لحظة حتى سمعت دوي الرصاص ورأيت النمر قد ارتفع في الفضاء
ثم انطرح بين الادغال ميتاً . ولم اكد اغبط نفسي على خلاصي منه
حتى ادركت اني بين زمرة من العبيد اللصوص الذين بعد ان قتلوا
النمر انهالوا علي ببوابل من الرصاص . فاعلمت المهماز في خاصرة
الجواد وشعرت قبل ان انجوب نفسي برصاصة اصابت فخذي واخرى
رأسي وثالثة ظهري وكلها كانت ترجع عني كأنها اصابت صفيحة من
الفولاذ . وقد وجدت في اليوم التالي رصاصتين في السرج وهما لا
تزالان عندي . هذا بسيط ! وقد حدث لي اغرب من ذلك عندما
احترق البيت الذي كنت اسكنه فذهب هو وكل من فيه ضحية
النار وبقيت انا وحدي سليماً . وهذا بسيط ايضاً ، وقد حدث لي

اغرب منه بكثير مما يشيب الاطفال . وسأقص عليك بعضاً منه
فيما بعد . »

لا ادري من اين اتني الجسارة على ان اقول لصاحبي
شاهين بعد ان اصغيت اكثر من ساعتين لا قصيصه اني — مع كل
اعتباري اياه — لا ازال اشك بقوة خشيتي . ولما شرعت اسأله هل
فحص بنفسه الحراطوش الذي ناوله اياه اليوناني ليضعه في البندقية
عندما جعل نفسه هدفاً لانه ان نظرت الى وجهه فاذا به قد جمد كقطعة
من حديد وجحظت عيناه ثم صاح فجأة باعلى صوته منادياً ابنه
الوحيد الذي لم يبلغ بعد الخامسة من عمره .
الفريدو . الفريدو !

ولما لم يحبه الفريدو وثب قائماً وهرولاً نحو البيت وبعد هنيهة
خرج وفي احدى يديه بندقية وبالاخرى يجر الفريدو الصغير الذي
تبع اياه صاغراً وعلى يده قطعة بيضاء حريرية الصوف يقبلها تارة
ويداعب راسها بيده اخرى اما انا فبقيت جالساً كمن اصيب بمس لا
ادري ما عسى ان يعني كل ذلك المشهد ، وشاهين لم يتنازل بعد ذلك
ان يبادلني كلمة واحدة كانني حجر ملقي على المصطبة لا صاحب له .
لكن منظر الصبي الصغير وقطعه والحنو الذي كان يديه نحوها مع
بعض الدهشة البادية على وجهه من معاملة ابنه حولت افكاري عن
شاهين قليلاً فلم ادرك كنه قصده حتى رأيته قد اوقف الصبي على
طرف المصطبة ثم نزع الذخيرة من رقبته وعلقها برقبة ابنه آمراً اياه

ألا يتحرك من مكانه . ثم تراجع بضع خطوات الى طرف المصطبة
 الاخرى والبندقية في يده . ثم رفعها الى كتفه فلم اصدق عيني اذ رأيته
 قد صوبها نحو ابنه فوثبت كالجنون غير آمل ان اصل الى يده قبل ان
 يتم القدر الرهيب . واصطكت رجلاي وانقطع نفسي وارتجفت يداي .
 لكنني تمكنت من ان ادرا الخطر وان اخلص الطفل من الموت .
 تمكنت من ان اميل يد صاحبي قبل فوات الوقت فدوى العيار في
 الفضاء وذعر الصبي وأجش في البكاء . فهرولت الام بقلب متقطع
 من داخل البيت ولم تصدق ان وحيدها لم يزل حيا حتى رفعت يديها
 وضمتها الى صدرها ونشفت دموعه بشفتيها ولما سكن روعها هجمت
 نحو زوجها وطفقت تصب عليه اللعنة بعد اللعنة والشتيمة اثر الشتيمة .
 ومن الغرابة انه لم ينبس ببنت شفة بل نزع الذخيرة بهدوء من عنق
 ابنه ثم صبر حتى عادت زوجته مع ابنها الى داخل البيت وعاد فالتقط
 القطعة التي كانت قد افلتت من يد ابنه وعلق الذخيرة في عنقها ثم
 اخذها وربطها حيث كان قد اوقف ابنه منذ دقائق ، وتراجع الى
 الوراء دون ان يتكلم علي بكلمة ورفع البندقية ثانية الى كتفه
 واطلق عياره قبل ان يتمكن من ان أشفع لديه بتلك القمطة الجميلة
 المسكينة التي لم يبق منها في لحظة سوى امعاء ممزقة وكتل من
 الصوف مبعثرة وبركة دم صغيرة في المحل الذي كانت مربوطة فيه .
 ونظرت في تلك الدقيقة الى صديقي شاهين فاذا بلونه قد اتمتع وبعينيه
 قد جهدتا ثم رأيته قد رفع البندقية في يده وطرحها عنه الى بعيد بحق

كلي ووقف بعد ذلك هنيئة مكانه ثم مر من امامي بخطوات
مسرعة فلم أجسر أن اساله الى اين ، بل وجدت من الحكمة أن
اعود الى بيتي ساكتاً .

*

كنت بعد ذلك الحادث بأسبوع ذاهباً ذات ليلة الى غابة الحور
على شاطئ الساقية لتخلص من وطأة الحر واسلم الضفادع بعد أن
حرمني صاحبي شاهين من لذة مسامرتة فرأيت في ضوء القمر رجلاً
جالساً على حافة بركة في الساقية يرمي فيها حجارة . ثم رأيته ينزع من
عنقه قلادة ويربطها حجراً وي طرح الحجر في البركة متعمهاً . واذ احس
بوقع قدمي نهض حالاً فعرفت فيه صاحبي وسميري وشعرت بقوة
تدفعني اليه لارتمي على عنقه واطوقه بيدي والتم انامله واسأله الصفع
عن كل ما سببته له من المساويء واعبر له عن حاجتي القصوى اليه
وشوقي الى تجديد العلاقات الودية بيننا لكنه مر كطيف امامي دون
أن يلتفت يميناً او يسرة وقبل ان اجد في نفسي قوة لاحتراك لساني
غاب خياله عن عيني وابتلعت السكينة وقع خطاه البعيد على اوراق
الحور اليابسة . — « ١٩١٧ »



صاحبي شمس الدين
ابا زيب كهنه ايدى
ورديده السيب انبارى
وحياتك مروياتك . ثم ايساره الصانع
= ١٠٦ =

معاداة «البيك»

كنت مع رفيق لي في مطعم سوري نتناول طعام العشاء ، وكانت الساعة بعد التاسعة والمحل قد فرغ من الزائرين . فجاء صاحبه وجلس معنا ليساعدنا باقاصيصه الغريبة على ازدراد مطبوخاته وهضمها . وهو رجل لطيف العشر يتودد الينا ويغالي في ارضائنا لاننا عنده من الزبائن « المكفولين » . فقال رفيقي بجليسنا ناظراً الى ساعته :

— لقد جئناك متأخرين هذه الليلة يا ابا عساف ، واخاف انك تستعد لتقبل مطعمك وتعود الى بيتك فلا تتأخر من اجلنا !
فهز ابو عساف برأسه يمينا وشمالاً واقسم لنا بحياة عساف انه يحسب الجلوس معنا شرفاً وانه من اجل خطرتنا يفتح مطعمه حتى نصف الليل . وانه هو والمطعم على « حسابنا » و اضاف انه قلما يقفل بابه قبل الساعة العاشرة لان « البيك » لا يأتي حتى الساعة التاسعة والنصف .

فسادرناه بالسؤال سوية بنم واحد : من هو « البيك » يا ابا عساف ؟

و كأننا بسؤالنا جددنا على الانبياء والقديسين الذين يعبدهم ابو
عساف اكثر من ربه وانكرنا وجود العزة الالهية او قلنا اننا وجدنا
في الشورباء خنفساء . اذ جحظ ابو عساف وقال كمن لا يصدق
اذنيه :

— احثاً لا تعرفان البيك ام انما تمزحان ؟ اذا من تعرفان ؟
وقبل ان يتغلب ابو عساف على دهشته من جهلنا المطبق اذا
بالباب افتتح ودخل رجل طويل القامة منتصبها ضيق الكتفين ،
مندلق الكرش ، طويل اليدين والاصابع . في يده اليمنى عصا
كذنب الكلب . وفي اليسرى جريدة عربية وعليه بذلة نصفها
الاسفل رمادي ونصفها الاعلى بني وكأها قد نهش الاستعمال اطرافها
فتدلت خيطانها بين طويل وقصير . اما وجهه فلم ارم منه لاول وهلة
سوى شاربيه الكثيفين الملاصقين لطرف اذنيه . وانه المنتفخ كالكوز ،
وبشرته الحادة السمرة .

ومشى الزائر بخطوات ثابتة متساوية الى آخر المطعم وهناك
لقى عصاه وبرنيطته على طرف الطاولة وجلس يطالع جريدته .
فتفرست فيه ملياً اذ رأيت في حركاته ولباسه من الغرابة ما زاد
شوقي لدروس ملاحظه . ومن اعرب ما استلفت نظري فيه شكل رأسه
الذي يشبه رأس الصنوبر ، وحجم اذنيه المسطحين اللاصقين
بمحجمته كقطعتين من العجين . وشعره القصير الذي يبدأ فوق
حاجبيه بقراطين .

— يا ابو عساف هات لنا كرسي مع الورق وكروش بحمص
وحمص بطحينه • وشوية بطيخ !

قال زائرنا ذلك دون ان يرفع عينيه عن الجريدة بصوت من
تعوّد منذ نعومة اظفاره ان يأمر وان لا يرد له امر • وكان ابو
عساف منذ رآه داخلا قد اسرع الى المطبخ فاعد له بلحظة كل ما
طلب وقدمه اليه بكل هنية واحترام دون ان يفوه بكلمة كأن زائر
جبار من الجبابرة او ملك من الملوك • وهكذا بقي ابو عساف يأتي
بصحون ويأخذ صحوناً الى ان انتهى الزائر من اكله فنهض ووضع
برنيطته على رأسه واخذ عصاه بيده وجريدته باخرى وخرج مثلاً
دخل بخطوات ثابتة بطيئة ودون ان يلتفت يمنة او يسرة او ان يدفع
لابي عساف فلساً واحداً •

وما هي الا هنية حتى عاد ابو عساف اليها يعتذر عن اهماله لنا
مدة وجود الزائر الثالث في المطعم وذلك بلهجة غريبة كأنه كان
اخرس وانطلق لسانه • وقبل ان نبادله كلمة واحدة قال :

— هذا هو البيك • أرايتاه ؟

فسأله عن اسمه وشأنه فقال :

— اسمه اسعد الدعواق • وهو من بلدتنا في لبنان وآخر مشايخ
بيت الدعواق الذين حكموا بلدتنا زماناً طويلاً ، فكانوا مطلقي الارادة
وكان اهل البلدة عندهم كمبيد لا يملكون من الارض التي يحرثونها
قترأ • فجار الدهر عليهم بعد حين كما جار على الكثيرين من الامراء

والمشايع سوامهم . وحدث ان البعض ممن كانوا عندهم قبلاً مرابعين هاجر الى اميركا وعاد بالمال فاشترى قسماً كبيراً من الارض التي كانت ملكاً لبنت الدعواق . واخذ هذا البيت ينقرض جيلاً بعد جيل حتى لم يبق منه الا الشيخ اسعد ولم يبق للشيخ اسعد من عز اجداده الا اسم المشيخة وديون لا تحصى .

ثم حدث كذلك ان واحداً من ابناء البلدة ومن خدام الشيخ اسعد سابقاً حصل في اميركا ثروة كبيرة فعاد الى الوطن وبني له قصراً فخماً وابتاع لنفسه لقب « بيك » وانما تعلمان كيف كانت تشتري وتباع هذه الالقاب عندنا .

وكان الشيخ اسعد حتى ذاك الوقت راضياً بحاله ، قانعاً بما قسم له ، مكفياً بانه لا يزال شيخ البلدة ووجهها دون معارض او مزاحم . اما بعد ان اصبح في البلدة بيك فلم يعد مهتماً للشيخ مقام . وكيف يقبل ابن الدعواق على نفسه ان يكون في بلده من هو ارفع منه رتبة ؟

والانكى من ذلك كله ان يكون هذا اليك من بعض خدام الشيخ سابقاً . الموت ولا الصبر على هذه الالهانة ! فانقلب الشيخ بغتة كأن يداً خفية اختلسته وجاءت بسواه . فلم يعد يزور الكنيسة وكان لا يفوته احد ولا عيد . وحتم على زوجته ان لا تخرج من البيت . وسحب اولاده من المدرسة وقفل ابواب بيته للناس فلم يعد يقبل زائراً .

وصار اذا مشى في الشارع لا ينظر يمنة ولا يسرة . واذا القى عليه العابرون السلام لا يرد لهم سلاماً . واذا اتفق والتقى بالبيك في الطريق شمش بانه وقتل شاربيه وبرم عصاه في يده وتتنح وتقل على الارض كمن يتقل على الشيطان .

فحار اهل البلدة في امره وكثرت اقوالهم وآويلهم . فمنهم من قال بان الشيخ فقد عقله لان كل خطايا بيت الدعواق ومظالمهم قد تعلق بعنقه كحجر رحي . ومنهم من قال بانه لم يعد يقوى على معاشره الناس بعد ان تقلص كل عز اجداه واحي . ومنهم من ظن ان الشيخ صار ينجل من مقابلة الناس لكثرة ما عليه من الديون وانه لا يقبل الزائرين اذ ليس عنده ما يقدمه اليهم من واجبات الحفاوة واكرام الضيف .

وهكذا بقيت البلدة في قيل وقال الى ان شاع الخبر عن ان الشيخ قد اختطفته جنية ، اذ مر نحو اسبوع ولم ير احده وجهاً . فقامت البلدة وقعدت واجتمع الشيوخ برئاسة الكاهن لينظروا في هذه المسألة الخطيرة ويروا كيف يخلصون الشيخ من يد الجنيسة او كيف يتخلصون من بقيمة نسل الشيخ ليدروا عن البلدة خطر الجان . وبينما هم في اخذ ورد وقد استحوذ عليهم الذعر والكاهن يبين لهم ان من الضرورة ان يدخلوا بيت الشيخ بالقوة ليرشوه بالماء المقدس وان يبعدوا اولاده وزوجته عن البلدة خوفاً من ان تمت بواسطتهم سلطة الجان على البلدة كلها ، اذا بالشيخ يدخل عليهم فجأة . فيجمدوا

لحظة كالسمرين في اماكنهم . ثم هبوا كرجل واحد واقفين .
وهكذا وقفوا بضغ دقائق كالاصنام دون ان يحرك احدكم شفة .
والرعب قد اخذ منهم كل مأخذ . واخيراً تجرأ الكاهن فقال بصوت
مرتجف بعد ان رسم علامة الصليب على وجهه :

— اهلا وسهلا ، اهلا وسهلا بالشيخ اسعد !

فقاطمه الشيخ مفتلاً شاربيه :

— سمعدتو اسعد بك الدعواق يا بونا ، سمعدتو اسعد بك .

الشيخ اسعد مات وقام اليوم مكانه سمعدتو اسعد بك !

بقي جرس الكنيسة يقرع تلك الليلة نحو الساعة مبشراً السكان
بان شيخهم قد اصبح بيك . وانتشر الخبر كالبرق في البلدة ان الشيخ
اسعد قد غاب كل تلك المدة اذ دعاه المتصرف اليه ليعلمه حصوله على
البكوية . فقامت البلدة تحرق ما عندها من البترول والهشيم ، وقام
« الدبك » ودار التهليل « يا بيكنما ! » ولا آخر مرة في تاريخ بيت
الدعواق عادت دارهم فاكنتظت بالجماهير ، وعادت الانوار تتسلاًلاً
من شرفاتها ، وعاد الشبان والفتيات فحاطوا بها بين مهلمين وممشدين
ومزغردين والكل معتقد ان عز بيت الدعواق قد اخذ يتجدد وربما
فاق عز الاجيال السالفة .

وكان اول ما فعله الشيخ اسعد بعد ان اصبح « سمعدتو » انه اطلق
سراح امرأته واعاد اولاده الى المدرسة بعد ان اوصى المعلم ان
يجلسهم في رأس الصف لانهم اولاد « البيك » والا يخطر له ببال ان

يجلس اولاد « البيك » الاخر فوقهم ، وعاد فابرم صلحاً مع الله
وجدد زيارته الى الكنيسة . ولما قام الكاهن في الاحد التالي ليثلج
صدور رعيته ويعلن لهم رسمياً من على المنبر بشرى حصول الشيخ على
البكوية قائلاً :

— يا اولادي المباركين : لنفرح وتهلل جميعنا لان اخانا الشيخ

اسعد ...

قاطعه الشيخ بقوله :

— سعادتلو اسعد بيك يا بونا . سعادتلو اسعد بيك !

ومن شدة غيخته على شرف رتبته الجديدة رفض كتاباً جاءه
بعنوان : « رفعتلو اسعد بيك الدعواق » ومن ذلك الحين انذر مأمور
البريد في القرية انه لا يقبل كتاباً باسمه الا اذا كان معنوناً « سعادتلو
اسعد بيك » .

اما زوجته فلم يعد يشير اليها امام الناس لا باسمها ولا باسم
بكرها ، بل بلقب « البيكة » فيقول : « البيكة في البيت »
و « البيكة لا تستقبل اليوم ضيوفا » ويمتنع اذا ذكرها احد امامه
ولم يذكر لثبها .

وهنا يجب ان ارجع بكم الى البيك الاول ، ذاك الذي كان خادماً
عند الشيخ اسعد وهاجر وحصل على ثروة وعاد وابتاع لقب بك
قبل ان يناله الشيخ . هذا الرجل واسمه « ووكس نصور » كانت في
قلبه ضغينة ضد الشيخ اذ كان قد طلب منه يد ابنته فاشتمل الشيخ

غيظاً وطرده من بيته وامره ألا يعود ويطأ عتبة والا ينسى انه كان
خادماً ، وكيف للخدام ان يجسروا على طلب بنات الاسياد ؟ فخرج
وروكس تصور من عند الشيخ وقد اضر له سوء . فرأى ان يطعنه
طعنة نجلاء في نقطة حساسة من حياته الا وهو اعتزازه باجداده
وفخره بانه لا يزال في مقدمة كل اهل البلدة رتبة ومقاما . فراح
وابتاع لذاته لقب بك وظن انه قد سحق خصمه الى الابد . غير انه
ما طال ان شاع خبر الشيخ وسفرته الى مركز المتصرفية ورجوعه
من هناك مع البكوية . فما الحيلة بعد ذلك ؟

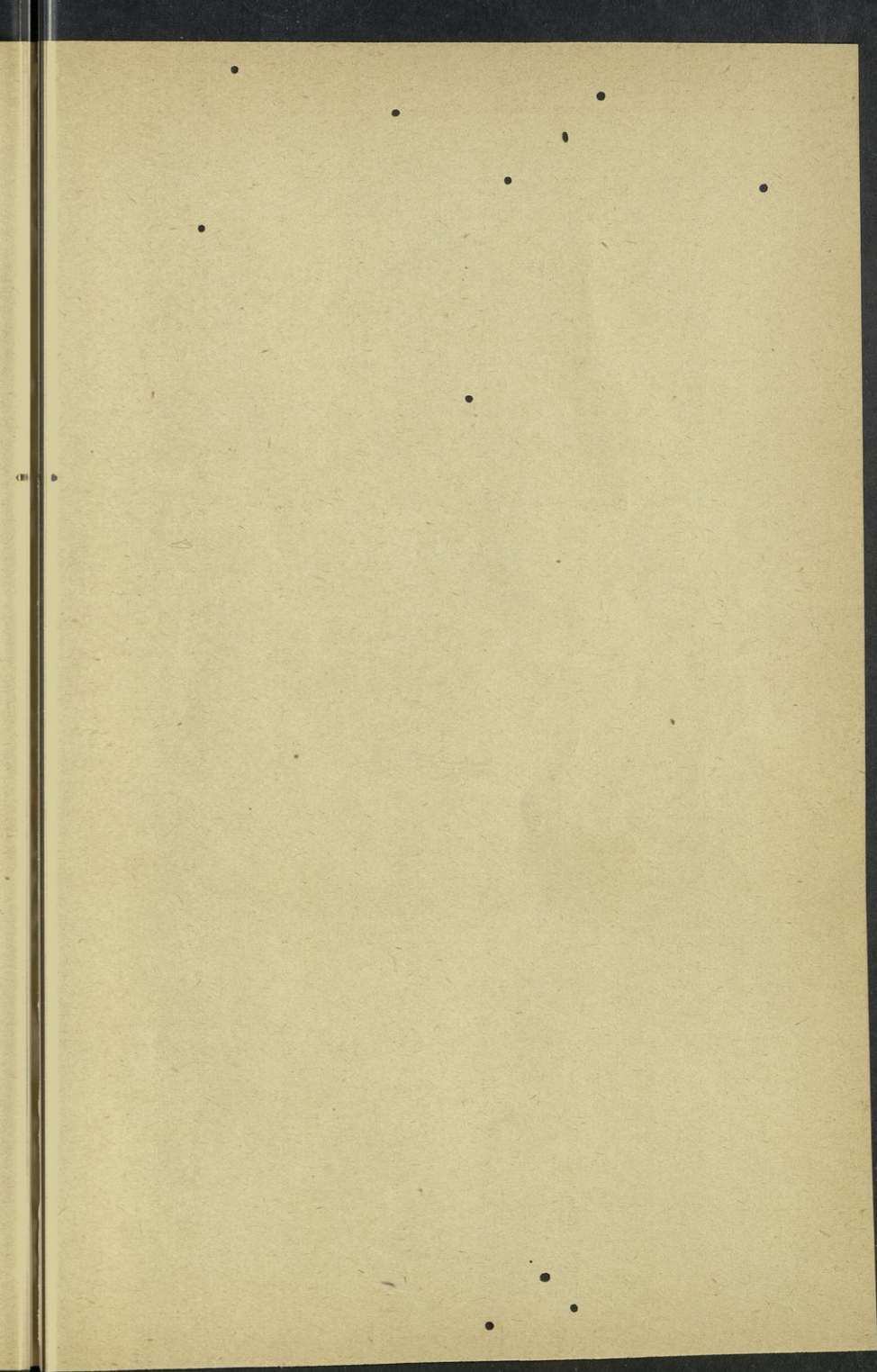
بقي روكس تصور يبحث عن وسيلة للانتقام من خصمه الى ان
خطر له يوما فكرة جديدة وهو : من اين جاء الشيخ للمال ليشتري
البكوية وروكس يعرف انه يأكل بالدين ويشرب بالدين وانه قد
رهن من زمان كل ما فوقه وتحتة ؟

وهذا الفكر قاده الى مركز المتصرفية وهناك بحث واستقصى
فلم يجد من يعرف الشيخ ولا من سمع به واكد من بينات كثيرة
ان الشيخ لا زار مركز المتصرفية ولا نال بكوية ، بل اختلق
ذاك اختلاقا ليحارب خصمه بسلاحه . وانطلقت الحيلة على اهل البلدة
لانهم سذج ولان اسم الدعواق عندهم يعني القوة والسؤدد والعظمة .
ما عاد روكس تصور باكتشافه الجديد حتى انتشر الخبر
بامحة طرف من بيت الى بيت عن ان « سعادتو اسعد بك الدعواق »
لم يكن سعادتو على الاطلاق ، وانه لا يزال الشيخ اسعد « حاف » .

وفي ذلك اليوم عينه غادر الشيخ البلدة وانقطعت اخباره .
 وراح زمان وجاء زمان . وهاجرت انا الى اميركا وفتحت مطعماً
 في نيويورك . وحدث ذات ليلة اني سمعت ثلاثة من زبائني يتحدثون
 عن « سعادة البيك » فقال واحد منهم انه رآه في حديقة عمومية
 بعيدة عن المنطقة السورية يمسح احذية . وقال آخر انه يبيع جرائد
 في الشارع . وقال ثالث انه وجده ليلة في محطة من محطات قطار
 النفق نائماً على مقعد من المقاعد هناك . فسألهم من هو ذاك « البيك »
 الذي يتحدثون عنه . فقالوا انه سوري يدعو نفسه اسعد بيك الدعواق
 ويقا تل كل من يجسر ان يدعو به باسمه دون لقبة . فلم يعد عندي شك
 ان الشيخ اسعد في نيويورك . واصبحت في شوق لالتقي به . وما هي
 الا بضعة ايام حتى رأيته داخلاً من تلقاء نفسه .
 جاء في ليلة لم يكن عندي فيها احد . وكانت الساعة نحو التاسعة
 والنصف . فعرفته للحال وعرفت انه عرفني واسرعت لمصافحته
 والسلام عليه . فلم يمد الي يداً ولا سألني عن حالي . لا حياً الله ولا
 سلم الله . ولما زلق لساني وقلت له اهلاً وسهلاً بالشيخ اسعد رمقني
 شزراً وكاد يأكلني بعينه وقال : « اسعد بيك يا ابو عساف ! اسعد
 بيك ! » وسار تواء الى طاولة وجلس وطلب طعاماً فقدمت اليه كل ما
 طلب واكثر وحاولت مراراً ان احديثه فلم يحدثني . وعندما اكل
 وشبع قام وقال : « قيدهم على الحساب يا ابو عساف . » وانصرف .
 لقد مر على تلك الحادثة نحو السبع السنين : وهو من ذلك الحين

لا يزال يزورني كل ليلة في عين الساعة التي زارني فيها لأول مرة
وعلى الحالة عينها • يأتي مثلاً رأيته الليلة بيده عصاه وجريدة يتظاهر
انه يطالعها وانا اعرف انه لا يحسن القراءة ولا الكتابة • ثم يأكل
وينصرف ولا يدفع فلساً وانا اقول : « محنتين واكراما لوجه الله • »
فقلبي لا يطيعني ان اكسر خاطره • حرام • ما هو الا من بيت
الدعواق • وقد عرضت عليه مالا غير مرة فلم يقبل ولا بارة • مسكين!
وتهد محدثاً تهدة خرجت من اعماق قلبه • — « ١٩١٩ »





شورتى^١

من مذكرات جندي مجهول

(١) Shorty معنى هذه الكلمة الحرفي «قُصِير» وهي تستعمل
للتجيب • على حد ما تقول العامة في لبنان «قصيراني»

فرنسا : ايلول ١٩١٨

الجمعة

رفاقي يضحكون مني وانا اضحك من رفاقي . هم يضحكون مني لغرابية اطواري . وانا اضحك منهم لغرابية اطوارهم . غير اني اضحك اليوم من نفسي اذ اراني قد تخلقت ببعض اخلاقهم . والمثل يقول : عاشر القوم اربعين يوماً فلما تصبح منهم او ترحل عنهم . فقد اصبحت منهم اذ لا سبيل للرحيل عنهم . والى اين يهرب الجندي من جنديته؟

*

السبت

من الفرح ما يكدر ومن الكدر ما يفرح . فقد فرحت اليوم لانتقالي من الثكنة الى المستشفى وليس مرضي بالعضال . فقد ألم بي ما يدعوه رفاقي « الحكاك الفرنسي » وثلاثة ارباعهم مصابون به . لكنه قد حل بي بدرجة قوية حتى خدشت اظافري جلدي تخديشاً . فلما جرى عندنا اليوم الفحص الطبي حسب العادة رق الطبيب لحالي قائماني ان اذهب الى المستشفى ليعالجني معالجة خاصة . يقولون ان

سبب هذا الحكاك حشرات مكروسة كويبة تصعد من ارض المستنقع
حيث معسكرنا وتتغلغل في الجلد فتحدث الحكاك حتى يصبح المصاب
به كالجرب : يحك موضعاً من جسمه فلا يهدأ هياجه حتى يبدأ بحك
موضع آخر .

انا الان في مستشفى الامراض الجلدية . عندي طاولة صغيرة
اكتب عليها . وسرير عليه ملاآت مقصور بيضاء ولحاف ثقيل من
الصوف . سأنام الليلة ملء اجفاني فلا يوقظني في منتصف الليل
الشاوش قائلاً لي ان قد جاء دوري للحراسة . ولا اقضي تحت المطر
نصف ليلي حاملاً بندقيتي على كتفي ، اعد خطواتي واصغي لوقع
مسامير حداثي على الحصى . وهذا ما يفرحني : سرير ناعم وملاآت
كالثلج ولحاف دافئ ونوم هنيء ولا شغل في الغد . وهذا الفرح عينه
يكدرني لانه يريني الفرق بين الارقتس الذي كان يفتش الاحشاب
ويتوسد الكتب ويلتحف السقف ويسهر الليل مسامراً نفسه مستفسراً
اسرارها سعيداً بوحده مكثفياً بذاته . والارقتس الذي يسر اليوم
بفراش ناعم كما يسر الولد بالعوبة جديدة نافراً من وحدته مبتعداً
عن نفسه . فاحن الى الارقتس الاول واحتقر الثاني . لذلك اقول
ان من الفرح ما يكدر .

عندما دخلت المستشفى اشرباً نحوي كل من كان فيه . وبعضهم
كان يلعب بالورق . والبعض مستلقياً على الاسرة يغزل افكاراً
يا افكار .

فاعرضوا عن ههضم واحاطوا بي كالحلقة مؤهلين «بالاخ الجديد»
وانا احسبهم كلهم مصابين بداء الحكاك مثلي . ثم قال واحد منهم :
« لا شك في انك مثلنا ضحية » الغازات الحردلية . »

وكنت قد سمعت بان الغازات الحردلية هي من اكثر الغازات
سبباً تحرق كل ما تتصل به . وحرقتها يكاد لا يشفى والامها مرة .
فاشفقت على رفاقي اذا كانوا كما يدعون مصابين بها . واجبت سائلي
ان مرضي لم يكن الا من امراض الجلد البسيطة . فالتفت كل
منهم الى الآخر التفاتة شك وهزء وضحكوا وانا واقف بينهم
« كالمسؤول » لا ادري لماذا يضحكون . فقال احدهم : ولم تستر
يا هذا ؟ انظر ، هانحن عشرة ، والعشرة مصابون بالغازات الحردلية
ولا نستحيي من ذلك . فلماذا تأتينا انت بهذا « الكمو فلاج » ؟ امراض
جلد ؟ كأننا لم نسمع سواك من قبل يستر بهذه الاعاذير !

فاجبته والحيرة قد اخذت مني كل مأخذ ، والغازات الحردلية
قد اضحت عندي لغزاً من الغاز ~~التي~~ يكون : قلت لكم يا اخوان
ان مرضي من امراض الجلد البسيطة . فهو ليس الا « حككاكا
فرنسويا » . لو كنت محروقا بالغازات الحردلية مثلكم لسكنت احسب
ذاك شرفاً واجاهر به بدلا من ان استره !

ففقهم الجميع مرددين : « حكاك فرنساوي ! حكاك فرنساوي » :
وتفرقوا عني مقهقين وانا في حيرتي كمن اصاب بمس .

الاحد

بين رفاقي في المستشفى واحد يدعونه « شورتي » لانه قصير
 القامة . لا تقارق الابتسامة وجهه ولا يسكل له لسان . ومن الغريب
 ان السامع لا يمل من كلامه بخلاف كل من اعرفهم من الشترارين .
 ففي كلامه خفة ولو خالطتها بذاءة ، وبذاءته لا تحدش الاذن ولا
 تمتعض منها النفس . اذا شتم ففي شتمته عفة . وان مزح ففي مزاحه
 نكتة . وان قام بحركة ففي حر كته عياقة . فكيفما انقلب ومهما
 قال يستدعي استحسان الجميع فيقهقون تارة ويصفقون اخرى . ولولاه
 لكان هذا المستشفى كمقبرة وهذه الاسرة كالجود . وهو الذي لقبني
 « بالحكاك الفرنساوي » ولم يسألني عن اسمي . غير انه اذا ناداني بهذا
 اللقب ففي ندائه تردد لا احتقار . اما الاخرون فيقصدون به تحقيري
 واغاظني بالتهكم علي . ولا يدرون ان نفسي ارفع من ان يطالها
 تهكمهم .

*

الاثنين

قد رأيت في حياتي كثيراً من الناس . غير اني مثل « شورتي »
 لم ار . هو قبيح النظر ، افطس الانف ، واسع الشدق ، غليظ الشفتين
 نافر الوجنتين ، ممتقع البشرة ، شعره طويل قاس منتصب على رأسه
 كأنه مسلات للقنفذ ، وكأن بين الشعرة والشعرة ثأراً فلا تلتصق
 الواحدة بالآخرى . اذناه صغيرتان تكادان لا تظهران من تحت الشعر

وكذلك عيناها ، لكن بها جاذبية غريبة تنسل من بين اهدابها
السكيفة . ولست ادري ما الذي يجبه الى رفاقه . أقبح منظره أم
الجاذبية في عينيه . فلا شك في ان الجميع يحبونه . اذا غاب سكتوا
او انصرفوا كل الى لعب الورق او الزهر . ومتى حضر التفوا حواليه
كالحلقة وارتفع ضحكهم وازداد هرجهم ومرجهم . كلهم يتودد اليه
واسمه على السنة الجميع فلا تسمع الا من ينادي : شورتي ! لله درك .
فلولاك لكننا نموت ضجرآ . شورتي ! قص علينا هذه القصة او تلك .
شورتي ! ما رأيك في هذه المسألة او في ذلك الامر ؟ ...

فهو فيلسوفهم وشاعرهم و « مهرجهم » في وقت واحد . ولقد سمعته
بيدي اراءه في امور كثيرة من السخيف المضحك الى الجليل المبكي .
ومن الغرابة انه سواء حدث عن الحكاك الفرنسي او عن الحياة
بعد الموت فسامعوه يقهقهون حتى الغصة . اما هو فضحكته لا تتجاوز
الابتسامة .

كثيراً ما يجتمع رفاقي ويأخذون بتبادل اختباراتهم الحربية . ذاك
يتقص عما جرى له في معركة « شاتوتييري » والآخر عما لاقاه في
موقعة « سان مييل » والثالث عما شاهده في معركة « سواسون »
وهلم جرا . اما شورتي فلم اسمع منه حتى الان كلمة عن المعارك التي
خاضها مع اني قد عرفت من وكيل المستشفى انه حائز على ميدالية
« صليب الحرب » الافرنسية وان اسمه قد رفع الى وزارة الحربية
الاميركية لتعطى له ميدالية « الخدمة الممتازة » وقد سمعت واحداً

يسأله مرة رأييه في الحرب ، واخر نظره في « البوش » فتظاهر
كأنه لم يسمع السؤال وغير مجرى الحديث .

✱

الثلاثا

البارحة مساء بعد ان زارنا الطبيب وأنصرف مشى شورتي وراءه
حتى الباب .

ثم عاد بعد دقيقة وسأل بصوت عال : يا شبان هل على بالكم
قليل من الوسكي ؟

فضحك الجميع ظنا منهم انه قد جاءهم بمكتبة جديدة وربما صدق
احدهم بنزول ملاك من السماء على الارض قبل ان يصدق بوجود
وسكي في المستشفى .

غير ان ضحكهم لم يكن ليسكت شورتي فاعاد الكرة قائلاً :
دعوا المزح جانباً ، فاذا ما جئكم الليلة بوسكي فاني والله مسأنيكم
بأبنة عمها ، فما قولكم ؟

فاجاب القوم مداعبة وعم لا يصدقون ان في كلام شورتي شيئاً من
الجد : هات لنا بأبنة عمها فحلاً قيمنا قد جفت من العطش !

وللحال غاب شورتي لحظة وعاد بزجاجة كبيرة فيها سائل ابيض
ونادى : تعالوا الي ايها العطاش والناشفو الحلاقيم وانا ارويكم !
فهمب الجميع من اسرتهم واحاطوا به احاطة السوار بالمعصم واخذوا
يُنظرون الى الزجاجة نظر من لا يزال مشككاً في ان بينها وبين

الروسكي اقل قرابة او صلة .

لكن شورتي ما عثم ان بدد شكوكم اذ اخبرهم بحمد ان ما في الزجاجة هو سبوتو من اعلى طبقة وانه ككياوي قد فحسه فوجده لا يضر اذا مزج بقليل من الماء ، وان له من الفعل ما للوسكي بل اكثر وانه وجد الزجاجة في مستودع العقاقير والادوية الذي نسي وكيل المستشفى اقفاله . فجاءوا في الحال بالكؤوس واداروا الراح وانخفضت اصواتهم من الضجيج الى الهمس كأنهم يتممون سرأ الهياً . ودعوني لشاركتهم فرفضت . وخوفاً من طاريء يطراً اوفدت شورتي واحداً من الزمرة الى الباب ليحرسه ثم سكب لنفسه من الزجاجة كأساً طافحة ورفعها بيده وخاطب رفاقه قائلاً :

« ايها الاخوان ، لقد جمعنا اغرب المصادقات في اغرب الاحوال فتعاشرنا وتآلفنا وتحاييننا وقد ربطتنا رابطة النكبة المشتركة . وكلنا ضحية الغازات الخردلية . »

فضحك السامعون عند ذكر الغازات الخردلية هاتفين :
الغازات الخردلية ، الغازات الخردلية . يا لها من غازات سامة قتالة !
واستأنف شورتي كلامه :

« لقد جئكم غريباً عنكم فاصبحت واحداً منكم . جئكم فوجدتكم مستسلمين لليأس ووجدت اليأس يقرض قلوبكم قرضاً حثيثاً فحاولت ان اخفف من بلواكم ، فافتت من نفسي لكم مهرجاً . وقد نجحت بما قصدت . فقد مكثت بين ظهرائيكم نحو الشهر . فمر الشهر

ونحن بين ضحك ولعب حتى نسينا الخردل وغازات الخردل . ما
طلبتم الي شيئاً في طاقتي وضنت به . ولا سألني احدكم امراً وخيته
لا بل كرسن لكم كل وقتي من نهوضي من الفراش حتى عودتي
اليه . اقول ذلك لا طلباً لاجر او رغبة في ثواب فما ثوابي الا محبتكم
ولا اجري الا ان اكون رفيقاً لكم وتكونوا رفاقاً لي . غير اني
بدالة الرفقة والمعشر ارجب ان اطلب اليكم امراً زهيداً فهل تجيئون
طلبي ؟ »

فهنف الجميع بصوت واحد : اطلب ما بدا لك يا شورتي فكلنا
رهن امرك !

فاستطرد شورتي خطابه :

« ما شككت قط يا اخوان في ان خاطر شورتي عزيز لديكم .
فما اطلبه هو ان تتركوني الليلة مرتاحاً فلا تسألوني سؤالاً ولا تخاطبوني
بكلمة ولا يقترب احدكم من فراشي . فاني ارجب ان انفرد بنفسي
لاني بحاجة الى الراحة والانفراد .

« لقد شربنا وفرحنا وضحكنا . والان فنشرب ايها الاخوان
سر اجتماعنا بغير ميعاد ، فكما جمعنا مصادفات غريبة هكذا
نستفرقنا مصادفات غريبة واحوال غريبة . فمن يدري ماذا يضمره
الغد ؟ »

وشرب كأسه حتى السهالة وشرب الآخرون . واذا ذاك رفع
الزجاجة الفارغة بيده ورمى بها الى الارض فطارت كسراً ثم التفت

كسرة وجرح بها اصبعه حتى سال دمه واتى بمكسعة فكس
الشطايا . واخيراً دخل مستودع العقاقير وجاء بقبيل من الشاش
وربط به اصبعه وانطلق رأساً الى فراشه وارتمى عليه ، كل ذلك باقل
من لحظة والتسعة الآخرون ينظرون مبهورين كأن قد انقضت
عليهم ساعة .

كنت ارقب شورتي وهو يخطب فرأيت في ملاعقه معاني
جديدة وسمعت في صوته رنة غريبة . فما جاء على آخر خطابه حتى
تقلصت عن وجهه ابتسامته الحلاوة وادلمت عيناه وكأني رأيتها قد
تبلمتا .

ويظهر ان الآخرين قد لاحظوا ما لاحظت فلم يأخذوا كلامه على
مأخذ المزح وانصرف كل الى فراشه . ان تكلموا فهمسا وان مشوا
فعلى اطراف اقدامهم وقد سمعت جاري يهمس بأذن جاره : ماذا
ترى حل برفيقنا شورتي ، فهو يخاطبنا الليلة كأنه يودعنا . فهل
تقرر شفاؤه وعرف انه سيخرج غداً ؟ هنيئاً له ، اما نحن فنعلم العلم
اليقين ان لا شفاء لنا !

*

الثلاثاء

ها قد مر اسبوع منذ سطرت آخر كلمة في مذكراتي وحتى
الآن لم اجد في يدي قوة لاهمل القلم واكتب .
لقد تم ما قاله شورتي في خطابه عن ان مصادقات غريبة جمعنا

في احوال غريبة وستفرقنا مصادفات غريبة واحوال غريبة . فعمدنا
قد افترط ونحن اليوم بدون شورتي ...

بعد ان قفلت دفترتي ليلة الثلاثاء الفائتة واطلقت روحي في عالم
الاحلام شعرت ، والنعاس يطبق اجفاني ، بيد تهزني فافقت كالمذدوع
وسمعت صوتاً يهمس في اذني : « ارقش ، ارقش . لا تخف ! سألتك
بالله ان تنهض . واياك ان تنبس بكلمة ! »

فعرفت صوت « شورتي » ، وقبل ان اتغلب على دهشتي
سمعته يسألني : « هل عندك قلم رصاص ؟ هل عندك شمعة ؟ هل عندك
ورق ؟ انز شمعتك واجلس . هاك ثقاباً . على مهلك . على
مهلك . كيلا توقظ احداً . »

فانرت شمعتي وجلست في فراشي واذا بشورتي واقف بجانب
سريري وعليه بزته الجندي بكاملها من الخذاء حتى القبعة . اصبعه
ملفوف بالشاش وشعره الاسود نافر من تحت قبعته وعيناه تقدحان
شرراً . وبدون ان يفسح لي مجالاً لاسأله ماذا عسى ان يعني كل
ذلك قال لي : « قم واتبعني . لا تسلم ، هات الشمعة معك . ولا
تنس قلم الرصاص والورق . اتبعني واياك ان يسمع لقدميك
صوت . »

فلم امانع لاني شعرت لاجال ان ارادتي قد انسحبت مني
فاصبحت بين يديه كالطفل يقودني كيف شاء ويفعل بي ما اراد .
لذلك تبعته فادخلني مستودع العقاقير وقفل الباب . ثم امرني ان

اركنز الشمعة على طاولة هناك، واجلسني على صندوق من الخشب
ووقف بجاني ثم قال : « لا تطرح علي سؤالات ، فستفهم كل شيء » .
ولا تستعرب مناداتي لك باسمك فانا اعرفك واعرف اسمك . لقد
وجدت فيك فضيلة لم اجدها في سواك . وهي فضيلة السكوت .
وسكوتك ليس سكوت الأبله بل سكوت الفكر المتعمق . فانت
لا تعرقل افكارك بالكلام لانك تعرف لذة السكوت . لذلك قد
اخترتك من بين الآخرين لانك تفهم وهم لا يفهمون . فخذ قلمك
واكتب ، لان يدي لا تطاوعني على الكتابة :

« سيدي المحترم ودرو ولسن »

فكتبت ذلك ووقفت استعداد لكتابة ما يلي . غير انه بلمحة
طرف انتشل القلم من يدي ومد خطاً فوق ما كتبت وارجع الي
القلم قائلاً :

« لا بل اكتب :

« الى حضرة الجنرال دجان برشنغ قائد الحملة الاميركية العام... »
هل كتبت ذلك ؟ لا ، الافضل ان تمحوه .

هل محوته ؟ اكتب هكذا :

« عزيزتي فلانة .

« لا ادعوك باسم لاني من بين كل اسماء النساء لم اجد اسماً يليق
بك . والاسماء بين الناس تستعمل كالدمعة للماشية ليميز واحدها
عن الاخر . فهي لا تؤدي صفات المسمى . وصفاتك لا يستوعبها

اسم . فانت ارفع من ان تسمي واجل من ان توصفي .
« انت لا تعرفيني اما انا فاعرفك » وان كنت لا اعلم من انت
ولا اين ولدت ومتى . فانا موقن بانك تتنفسين في هذه الدقيقة في
مكان ما ، في بلاد ما . انت قبيحة المنظر في اعين الناس جميلته في
عييني . فانا احب انك الافطس وذقنك المستطيلة واحناك النافرة
وجبينك المغطى بالشعر وعنقك الضائع بين رأسك وكتفيك ،
وكتفيك المحدودين وصدرك المنتصق بظهرك وخصرك الذي يحجب
وركبك . احب حاجبيك الكثيفين واحب عينيك الصغيرتين ففيهما
قد تجلت روحك .

« لقد حفظت جسمك طاهراً من الاقدار اما انا فقد دلت
جسمي بكل ادران العالم لان مرضاً خبيثاً يأكل لحمي وينخر عظمي
ويمتص دمي . . . »

هنا ارتجفت يدي واقشعر بدني فلم آتمالك من ان اقف عن
الكتابة وارفع بصري الى « شورتى » واذا رأى الدهشة على وجهي
والسؤال في عيني قال وكان الكلمات تتسابق للخروج من بين
شفتيه :

— مالك وقفت ؟ أدهشك ذكر الداء الخبيث ؟ الا تدري اني
مصاب به ؟

قلت : لقد سمعتك مراراً تشكو من الحروق ، من الغازات الحردلية !
فاجاب هازأ رأسه وعلى وجهه ابتسامة مرارة وحزن عميق :

— ذاك اصطلاح نسير عليه هنا من باب «الكموفلاج» وما كنت
أحسبك جاهلاً لهذا الحد ، والان احلفك بالله الا تقاطعني فيما بعد .
تابع الكتابة .

« ... فانا جيفة حية بين اجياف متحركة ، ويداي ملطختان
بدماء بريئة لاني جندي وعمل الجندي القتل . فنقد حرمت أكثر
من زوجة لقاء زوجها ، وحيية عودة حبيبها . وقد اوجدت في العالم
اكثر من ثكلى ، واكثر من يتيم ویتيمة . ولقد بعثت أكثر من
امل ، ونفقت أكثر من عين ، ودمرت أكثر من بيت . لذلك دعاني
الناس شجاعاً ، وكافأوني بما يحسبونه شارات شرف وفخر . غير اني
مجرم في عينيك ، وانا مقر مجرمي ولا اطلب صفحاً ، فطلبي الصفح
منك هو اهانة لك . ولقد سببت لك أكثر من اهانة ، فهل اضيف
الان الى الطين بلة ؟

« لو كنت اجهلك لكنت اطلب منك صفحاً . غير اني اعرفك
واعرف انك لو كنت مكاني لفعلت ما انا عازم ان افعل . وماذا
يفعل جاهل جازف بحياته فخرها ؟ ماذا تفعل جيفة متحركة ؟
وان تسأليني كيف جازفت بحياتي ، ولماذا ؟ فاليك الخبر :

« انا لا اعرف لي اباً ولا امأ ، وقد سمعت البعض يقولون اني
لقيط . وسواء كنت لقيطاً ام لطيماً ، فالذي اعرفه اني ريت بلا اب
ولا ام . وهكذا نشأت في العالم . ولا ادري من الذي وضع بين
ضلوعي قلباً لم يحتاج في صدر بشر قلب نظيره ، كأن دمه كبريت

ملتهب وشرايينه اسلاك كهربائية تربطه بكل ما رسا ودب ومشي وطار
على وجه الارض وفوق وجه الارض .

« فسمرت احمل هذا القلب ستة وعشرين ربيعاً بين الناس ولم
اجد بينهم من كان قادراً ان يلتهب بلهيبه . لا بل لم اجد بينهم من
ادرك اني احمل في داخلي قلباً مستعراً . اذا كشفت لاحد من قلبي
واحس بلهيبه هرب . وان رششت على قلبي رماداً من رماد عادات
الناس وطقوسهم وتآديهم وتسترهم ، حسبوني جداً ولم يروا مني سوى
انفي الافطس وساقى القصيرتين وشعري المنتصب على رأسي كالخراب .
سنة وعشرون ربيعاً قضيتها بين الناس وفي صدري اتون من الحب .
فلم اجد من تجاسر ان يديني قلبه من قلبي ليحترقاً معاً امام مذبح
الحب . ولا كان قلبي يحترق فاستريح . ولا زيت الحب ينضب فتهدأ
نيرانه . وجاءت الحرب فقلقت هذه فرصة ثمينة فلا غنمها ولا حول
نار الحب في قلبي الى نار بغضاء . فالبغض قد اصبحت اليوم دين العالم .
واذا اتقد قلبي بنار البغض اتقدت معه قلوب . فليحترق قلبي مبغضاً
اذا تعذر عليه ان يحترق محباً .

« وهكذا تطوعت في الجندية . ثم سألت نفسي : ها انا اليوم
مبغض بين مبغضين ، وناقم بين ناقلين . فعلى من اغضب ومن انتقم؟
قسمعت رفاقي ينددون بالاولتقراطية والاستبداد والظلم والبربرية والقوة
المطلقة . فقلقت هاهم اعدائي فلا صبن عليهم كبريت نفعي . وذهبت
بنار بغضائي الى ساحة القتال فلم اجد هناك لاعدائي من اثر . وجدت

جهلا يناطح جهلا ، وبشرأ يذبجون بشرأ ، وكلهم مدفوع لا دافع •
فادركت ان الناس لا يقدرّون ان يبعضوا الا الناس وانهم قاصرون
عن بغض شر مجرد كما انهم قاصرون عن حب خير مجرد • ووجدت
نار بغضائهم كمنار جهيم ، شرارة لا تكاد تلمع حتى تنطفئ •

• حينئذ رششت على نار بغضائي رماداً ورحمت بين الناس امدح
ما يمدحون واذم ما يذمون • وكفنت قلبي بابتسامة بسطتها على وجهي •
فراى الناس ابتسامتي فاحبوها ، اما القلب المكفن تحتها فلم يروه ولم
يحفلوا به • ودفنت بلواي تحت مظهر المجون فاعجب الناس به ولم
يشعروا بلواي • وقلت اسير مع الناس حتى النهاية فاتعم بما يتنعمون •
فدخلت كهوف ملذاتهم وخرجت منها كما انا اليوم « جيفة حية » •
وما كنت لاسف على قلب خمدت فيه نار الحب ، وجسم ينخره
اليوم سوس الفحشاء لو لم يترأى لي شخصك في المنام •

« فلقد ادركت الان ان القلب الذي كنت ابحت عنه والروح
التي كنت انشدها هما حقيقتان لا خيالان • فذاك القلب هو قلبك
وتلك الروح هي روحك ، وانت حينما كنت فانك حقيقة لا وهم •
« ولماذا لم اعرفك قبل ان خمدت نار جي وفارقني طهارة الجسد
ونقاوة الروح ؟

« لماذا لم اتق بك يوم كنت احمل في صدري مشعلا وكانت
روحي خلية الفضيلة وجسمي اتقى من الثلج ؟
« اما الان فقد عرفتك لترداد حرقتي • عرفتك بعد ان لم يبق لي

ما يليق ان افدمه لك . فانت لا ترضين بي كما انا . وانا لا ارضى ان
ادنس طهارتك بقذارتى ولا ان اطفىء حبك برماد حبي .
« هل مللت هذيانى ؟ ومن الاك يفهم هذيان روحي ؟ فانت
ترين ما لا يرى . والناس لا يرون الا الظواهر . وانت تدرسين
عظم حرقتي والناس يرون ابتسامتي ويسمعون مجونى فيقولون : هنيئاً
له ، فهو بعيد عن الهم والهم بعيد عنه !

« لذلك وان فقدت حياتى فقد وجدتها اليوم في قبضتك . ولكي
اكون اهلاً للحصول عليها ساطهر نفسي وجسمي من كل ادرانها
وسأعود الى موقد الحب فانفض الرماد عن قلبي واضع محله قبساً من
ذاك الموقد . فيعود قلبي يشتعل وحينئذ نجعل من قلبينا مشعلاً يلتهب ولا
يحترق . فالى اللقاء — شورتى »

*

كسبت اخر كلمة وقد اعترتني هزة وتضعضت افكاري كأن
دماغي قد تحول الى مسحوق دقيق ذرته يد خنية في هاوية تلبدت
بدخان . ورفعت عيني الى شورتى فكدت لا اصدق عيني لاني رأيت
شبحاً غريباً قد حل محله كأنه خيال من عالم آخر . رأيت وجهه بلون
التراب وعينه كأنهما من زجاج وقد فارقهما كل ما كان فيهما من نار
ونور . وتحركت شفته فخيّل الى ان الموت واقف بجانبى يخاطبني
وسمعه يقول لي : أتدلى علي ما كتبت !

فدخل صوته في اذني كصرير الاسنان او كقرقرة العظام

فتلوت عليه الكتاب من اوله ، وما اتيت على اخره حتى سمعته
يخاطب نفسه وهو لا يزال واقفاً كالطيف : « هذيان .. هذيان .. »
فهل ترى تفهم هذياني ؟ بلى تفهمه . ففني قلبها نار كالتي كانت في
قلبي . وهي الوحيدة بين بنات حواء التي تحمل في صدرها
ناراً .. »

ثم وضع يده على كتفي وقال دون ان ينظر الي :
— اطو هذه الرسالة يا ارقش وضعها في غلاف واحفظها في
جيبك الى ان يأتي وقتها . سألتك بالله ان تحتفظ بها كما تحتفظ بخدقة
عينك . واذا عدت من الحرب سالماً — وانت ستعود سالماً — فسلمها
اياها بيدك ، أسمعتم ؟ بيدك لا بيد سواك ، اذ لبس من يصلح رسولاً
بيني وبينها الا انت . والان عد الى فراشك فقد حرمتك قليلاً من
النوم .

قال ذلك واخذ يدي بيده فشعرت كأنني اصافح الموت ثم
استطرد كلامه :

— اشكرك يا اخي ، وليحفظك الرب لتبقى طاهر العقل
والقلب والجسد . لا تسأني الى اين اذهب ، فانا ذاهب الى المطهر .
وداعاً !

وتوجه نحو الباب ففتحه وخرج ، ثم عاد بعد هنيهة وقال لي :
— اذا سألكم وكيل المستشفى او الطبيب عن زجاجة السيرتو
فقولوا له ان « شورتي » جرح اصبعه فوجد زجاجة السيرتو واجب

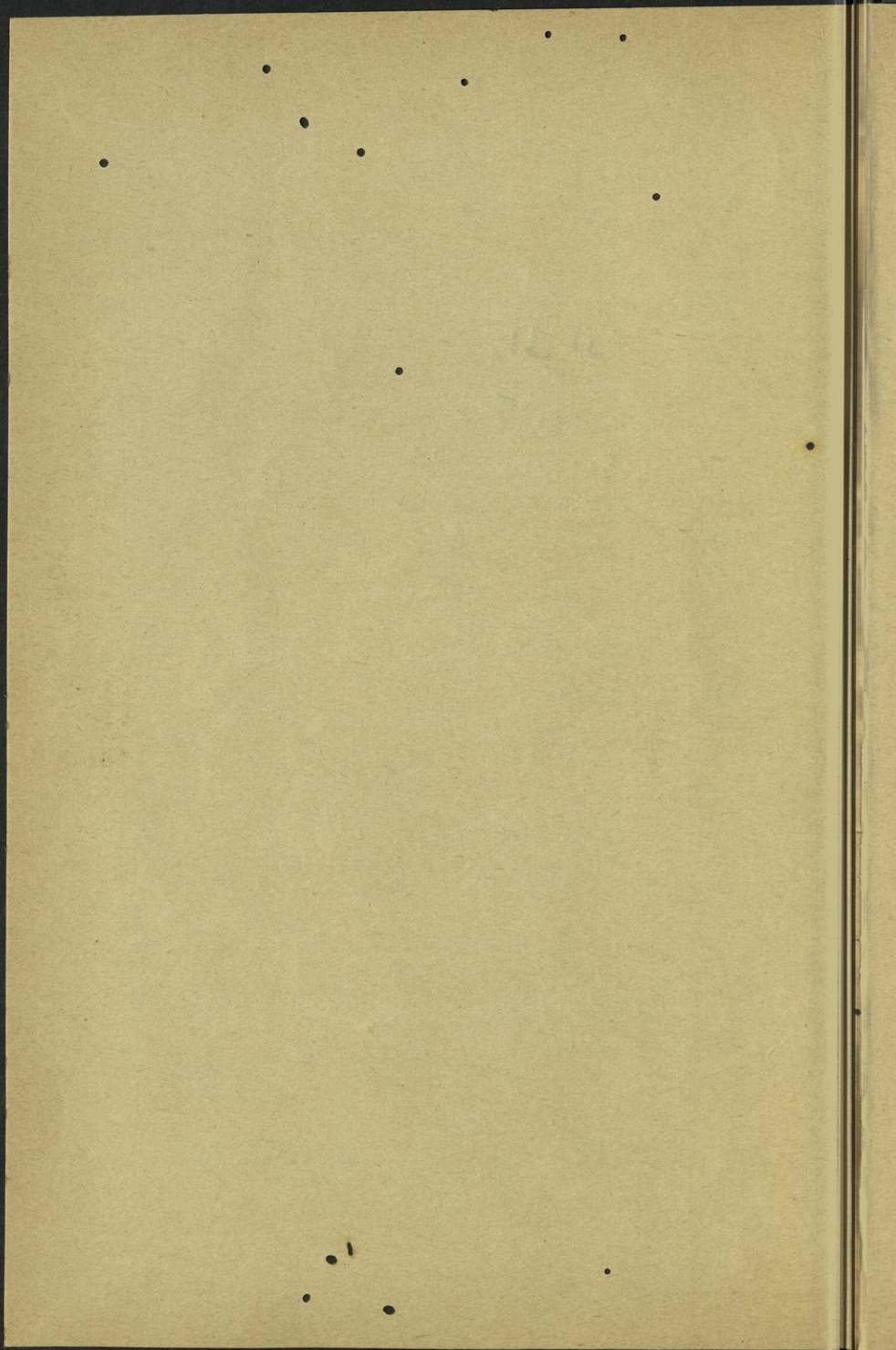
أن يغسل جرحه فووقت الزجاجة من يده وتحطمت ،
 وعاد فخرج ودكان قلبي خرج من صدري معه .
 وبقيت برهة كالأخوذ أحاول جمع شتات افكاري ولا اقدر . ثم
 نظرت الى شمعي فاذا بها ترمي اخر ذرة من شعاعها المتلاشي .
 فنفخت عليها نفخة خفيفة وعدت كالسكران البحث عن سريري
 بين الاسرة ، وغطيت رفاقي لا يزال يتصاعد في فضاء القاعة متوازناً
 متواصلاً . فخيّل الي ان ذلك الغطيط لم يكن الا انات مخنوقة
 خارجة من صدور اناخ عليها الموت بكل كفه . وان تلك الاسرة لم
 تكن الا لحدوداً تضم امواتاً لم يدركوا بعد انهم قد ماتوا ، والعالم
 يدعوهم « حماة الوطنية ونصراء العدل والحرية ... »
 وارتميت على فراشي منهوكة وعيناي تبولان في الظلمة فلا
 تبصران ، وافكاري تسبح في الفضاء فلا تجد ما تستقر عليه .
 وبينما انا كذلك اذا بصوت الخفير خارجاً : هالت ! قف ! من
 القادم !
 وعقب ذاك سكتة قصيرة ثم : قف ، واذا لم تقف صبت عليك
 النار !

ودوى الرصاص ، فاجفلت وانقبض قلبي وتلململ جاري على
 فراشه ، وتتم بضع كلمات لم افهمها ، ثم انقلب من جانب الى جانب
 وعاد يغط ومادت سكينه الليل رهية مخيفة جليلة .

كلما نظرت الى فراش « شورتي » ورأيتك فارغاً مهجوراً هجمت
الدموع الى عيني وفاضت قسراً عني •
غير اني اتعزى بان شورتي اليوم في مطهره • فحينئذ له !

« ١٩١٩ »





المواد

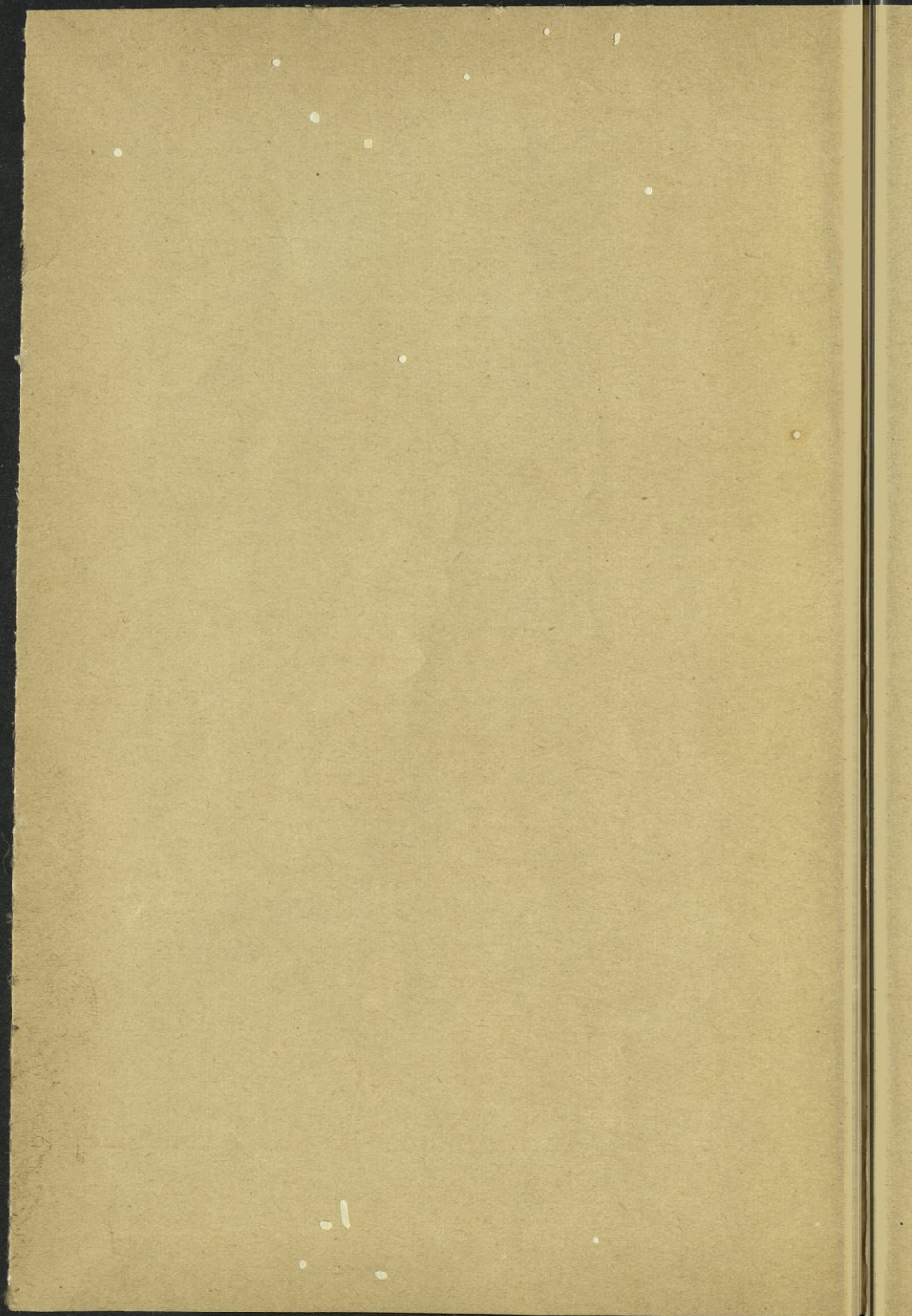
٧		ساعة الكوكو
٣٧		سنتها الجديدة
٥١		العافر
٨١		جمعية الموتى
٩٧		الذخيرة
١٠٧		سعادة «البيك»
١١٩		شورتي

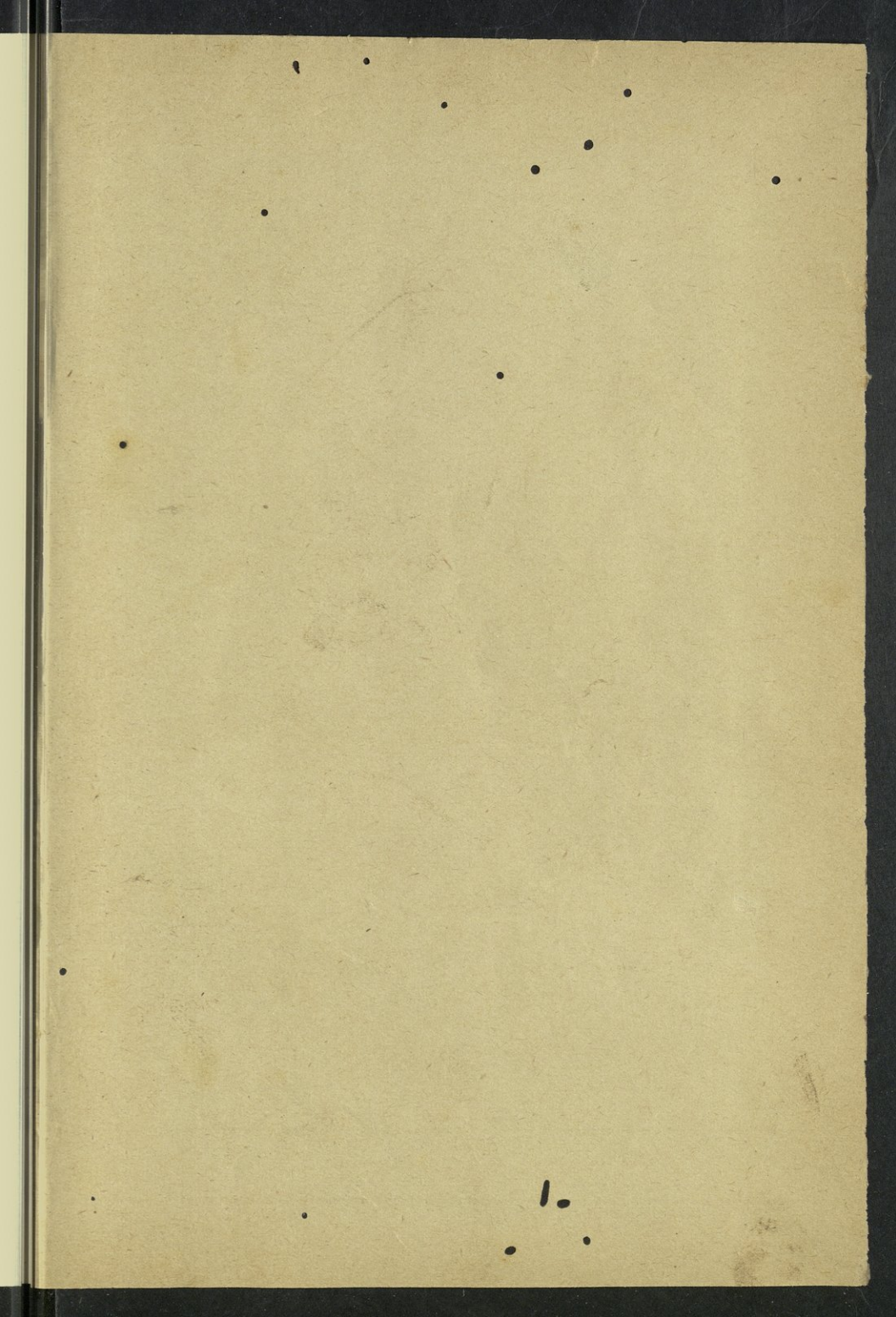
(انصرف ميخائيل نعيمة في السنين الاخيرة
عن الادب المادي الى الادب الروحي
البحث . وكان من الفاتحين في النقد
الحديث والرواية التمثيلية والقصة والشعر
الطليق من قيود التكلف والرياء والتقليد .

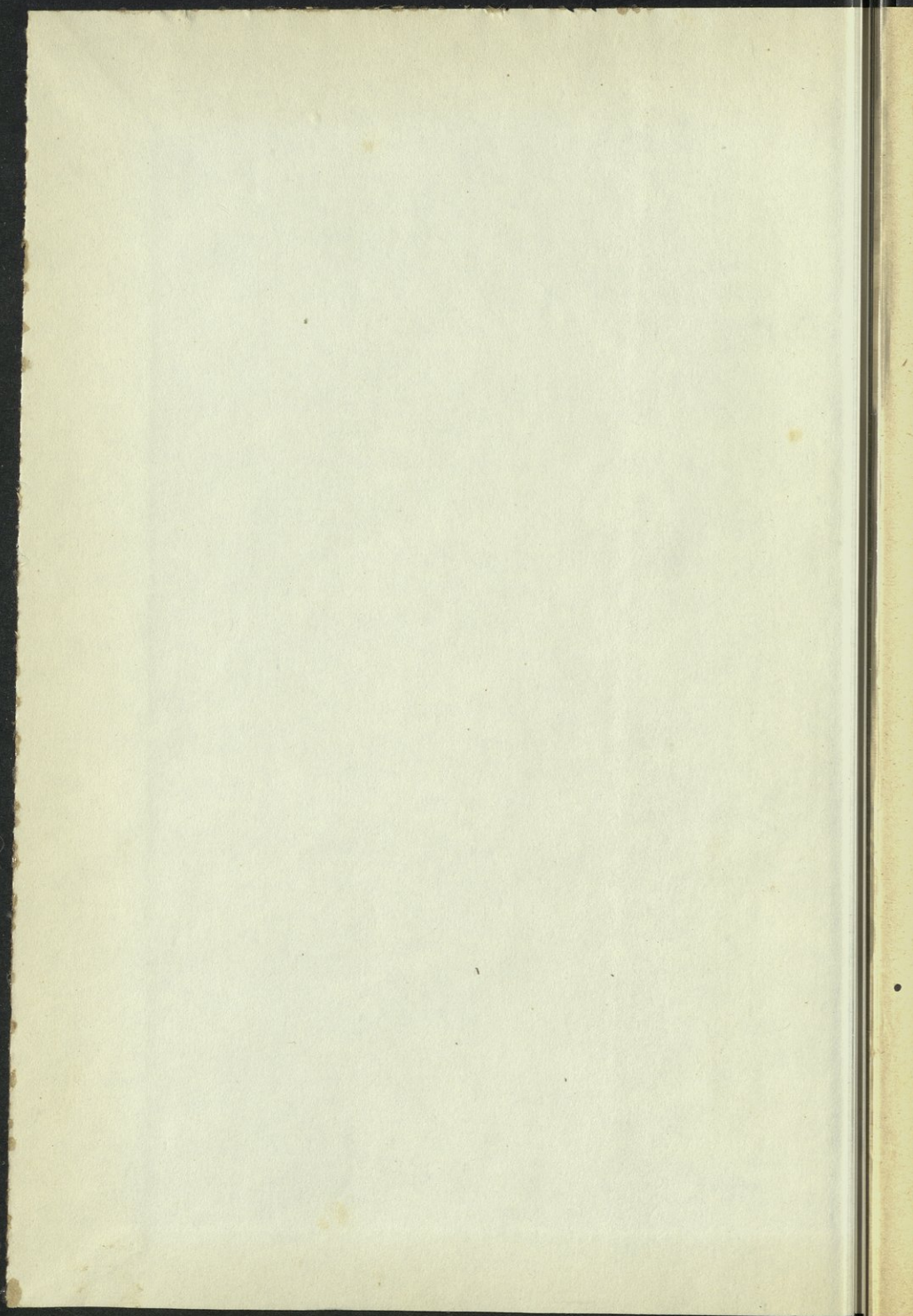
اما اثاره فاكثرها مجموع في «الغربال» .
واما قصصه وقصائده فما تزال مبعثرة هنا
وهناك . وقد كتبها كلها ايام كان مقيما
في الولايات المتحدة الاميركية .

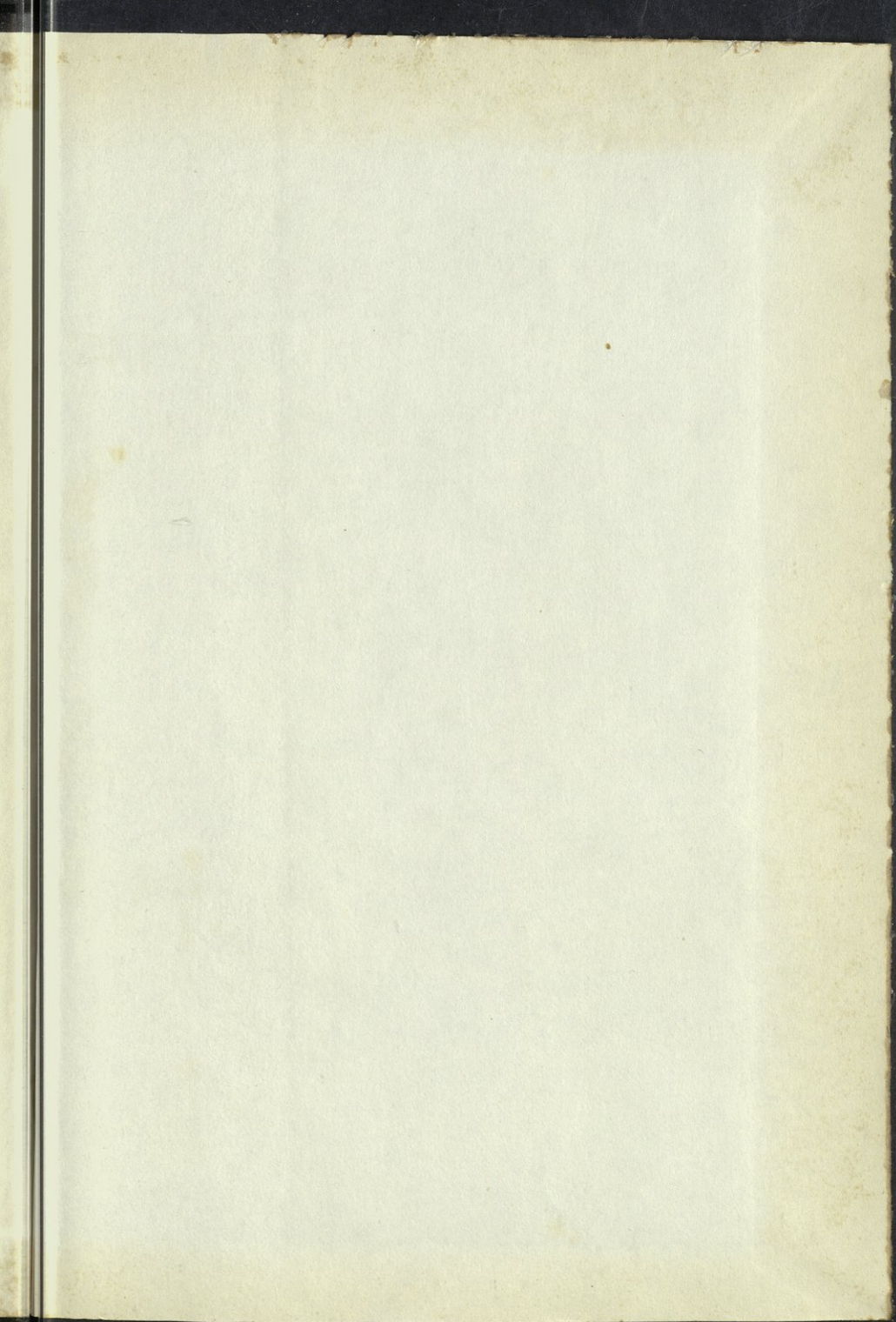
«فالكشوف» بحسبها خدمة للقصة العربية
الحديثة ونهضتها المباركة ان يتسنى له
تقديم مثل هذه المجموعة الى القراء .
وقد وضعنا في آخر كل قصة تاريخ السنة
التي كتبت فيها — «الكشوف»

انتهى طبع هذا الكتاب
في اول حزيران ١٩٣٧









AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00498215

CA
892.78
N962kA
1937